توحيد الزهيرى

الماء

فى القرآن والسنة والعلوم الحديثة

مقالات للتفسير

مكتبة الدار العربية للكتاب

الماء

في القرآن
والعلوم العلمية

مكتبة الدار العربية للكتاب
شارع عبد الله العربى - الحى السابع - مدينة نصر - القاهرة
هاتف : 2639851 - 2705799 - ص . ب 7584
e- mailALMASRIAHRASHAD@LINK.NET

تجهيزات فنية : الإســراء ت : 3143632

طبع: أمــون ت : 7944356 - 7944517

رقم الإيداع : 18153 / 2003

الترقيم الدولى : 9 - 222 - 293 - 977

الطبعة الأولى: رمضان 1424 هـ نوفمبر 2003 م

الـمــاء

فى القرآن والسُّنَّة
والعلوم الحديثة

مقالاتٌ فى التفسير

توحيـد الزهيـرى

بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿ سَنُرِيهِمْ آيَاتِنَا فِي الآفَاقِ وَفِي أَنفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الْحَقُّ أَوَلَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ ﴾

صدق الله العظيم

[فصلت ٥٣]

تقديم

تجديد علم التفسير..
فريضة دينية، وضرورة عقلية

لا يجادل مثقف حقيقى - مهما كان موقفه الاعتقادى من الدين الإسلامى - فى أن القران هو أعظم كتاب فى تاريخ الإنسانية على وجه الإطلاق، حيث اجتمعت لهذا الكتاب المجيد من الصفات والخصائص ما يجعل رَفْعَهُ فوق سائر ما عرفه البشر من الكتب حُكمًا للعقل المنزه عن الهوى وحده!.

نعم.. القرآن هو أعظم الكتب تأثيرًا فى حركة التاريخ الإنسانى، إذ كان تنزيله فى فجر القرن السابع الميلادى إيذانًا بتقويض بنيان العالم «القديم» وإنشاء عالم جديد، فكان نزول القرآن لحظةً فارقةً

غيّرت مجرى التاريخ، وأقامت الحياة الإنسانية على ظهر هذا الكوكب على أسس جديدة، وأدارت الصراع البشرى المحتوم على نحوٍ مغاير لما كان قبله، وذلك لأن القرآن العظيم قد استطاع باقتدار مذهلٍ «تغيير» الواقع فى شبه الجزيرة العربية، إذ أحدث التحولَ العظيمَ من «القبيلة» إلى «الأمة»، فارتقى بسكان الجزيرة العربية من بدوٍ رُحَّل وقبائلَ متناحرةٍ تعيش على هامش التاريخ حول حوافّ البلدان العريقة ذات الحضارة، إلى أمة لها رسالة تصنع التاريخ وتقود الأمم الأخرى إلى «التقدم» نحو المَثَل الأعلى للحياة الإنسانية الذى صاغته ومنحته ملامحه الفذة آياتُ «الذكر الحكيم».

فكانت الأمة الإسلامية التى أنتجها القرآن الكريم هى حقًا الأمة «الوسط»، يعنى الأمة المركزية التى تقوم فى وسط «مركز» العالم، وتدوُر حولها حركة التاريخ، إذ تقود البشر جميعًا بنشر الإسلام إلى معرفة الله الخالق «جلَّ فى علاه».. وهذه هى الغاية العليا من وراء خَلْق السماوات والأرض.

وفى غضون جيل واحد، استطاعت الدولة الإسلامية المعبّرة عن الأمة الإسلامية أن تصبح أقوى دولة على ظهر الأرض، وأن تمحو من الوجود «التاريخ» الإمبراطورية الفارسية ذات الحضارة العريقة، وأن تضعضع بنيان الإمبراطورية الرومانية الشرقية «البيزنطية» التى يطلق عليها العرب اسم «الروم».. ولذلك لم يكن غريبًا أن يختار **ميشيل هارت** النبى **محمداً** ﷺ على رأس أعظم مائة شخصية صنعوا

التاريخ وأثّروا فى الحضارة الإنسانية، وذلك فى كتابه «العظماء مائة».. حيث قام هذا العالم الأمريكى المعاصر - المتخصص أصلاً فى الرياضيات والكونيات - باستعراض التاريخ الإنسانى كله لاختيار أكثر الشخصيات تأثيراً فى مجرى الحياة الإنسانية على ظهر هذا الكوكب.

وبهذا الإقرار من عالم أمريكى لا يدين بالإسلام بأن النبى **محمداً** ﷺ هو أعظم صانعى التاريخ، نكون قد وصلنا إلى الحكم العقلى المحايد بأن القرآن - الرسالة التى أبلغها النبى **محمد** ﷺ إلى البشرية - هو أعظم كتاب عرفه البشر.

ولم يزل القرآن الكريم يواصل عمله وتأثيره فى المشهد الإنسانى كله، إذ يمنح الشعوب الإسلامية هويتها الثقافية، فيحفظ حياة الحضارة الإسلامية التى وإن ذبلت شجرتها، فإنها لم تَمُتْ.. وإن خبت جذوتها فإنها لم تنطفئ، وإن وهنت قواها بسبب ضعف «نقص» إيمان المسلمين وانحطاط همتهم وتخليهم عن أداء الرسالة التى كلفهم الله وقلة حيلتهم، فإنها لم تزل قادرة على منح البشر الأمل فى حياة أفضل بفضل النور الذاتى للقرآن الكريم الذى لم يزل يضىء ذلك الطريق.

ويمثل القرآن استثناءً فريداً غير مسبوق بين الكتب والوثائق التى تنتمى زمنيّا إلى العصور القديمة، فهو الكتاب الوحيد الذى يعد «وثيقة» تاريخية لا سبيل إلى الشك فى صحتها، فلا يمكن لعاقل

يعرف التاريخ أن يرتاب فى أن النص المكتوب بين دفتى المصحف الشريف هو نفس الكلمات التى نطق بها النبى **محمد** ﷺ معلنًا أنها وحى الله إليه، فقد تم جمع القرآن الذى نقشت آياته على الصحائف والرقاع الجلدية والألواح المصنوعة من لحاء الشجر فى حياة النبى ﷺ الذى نطق بالوحى.. ولم يمضِ إلا عام واحد على وفاته حين أصدر خليفته الأول **أبو بكر الصديق** - رضى الله عنه - قراره بجمع ذلك الوحى المكتوب فى مصحف واحد جامع، فتشكلت لجنة من كُتّاب الوحى وكبار الصحابة لكتابة هذه الوثيقة التاريخية المقدسة، ولم توضع آية واحدة إلاّ بعد التأكد بشهادة اثنين من الرجال العدول بأنها من الوحى الذى نطق به النبى ﷺ وأمر كُتّابَه بتدوينه. وهكذا وصل إلينا القرآن الكريم صافيًا من الشوائب، نقيّا مما سواه.. فلم يختلط بأقوال النبى نفسه ﷺ ولا شروح أو تعليقات الكُتّاب الذين قاموا بتسجيل هذه الوثيقة التاريخية المقدسة التى لا سبيل إلى الشك فى صحة نسبتها إلى النبى الذى نطق بالوحى الإلهى.. ﷺ.

وفى عهد الخليفة الثالث **عثمان بن عفان** - رضى الله عنه - تم وضع النقط فوق الحروف ليتم توحيد القراءة، أى طريقة النطق على قراءة قريش.. وبهذا العمل الفريد غير المسبوق صار لدى الإنسانية جميعًا قرآن واحد قد تم ضبطه كتابةً وقراءةً، أى رسمًا ونطقًا، ولا يوجد ظل من الشك فى صحة نسبته إلى النبى الذى تلقى الوحى.

وغنى عن البيان القول بأنه لا يمكن مقارنة القرآن المجيد بغيره من

الكتب السماوية، فهذه حقيقة علمية يقينية يعرفها كل من درس تاريخ تدوين أسفار «الكتاب المقدس» الذى يحتوى على الأسفار الخمسة المنسوبة إلى موسى ـ عليه الصلاة والسلام ـ وأسفار الأنبياء من بعده والإنجيل برواياته المختلفة.

وكما مثَّل القرآن ثورة هائلة مذهلة فى التعبير باللغة العربية(١)، فإنه يتضمن كنوزاً علمية بالغة العمق والاتساع.. كما يتجلى لكل من أتيح له أن يتأمله بإخلاص وكانت لديه الرغبة والقدرة على المعرفة، أن القرآن الحكيم يحتوى على ثروة علمية يستحيل اكتسابها بشريّا مهما بلغت «عبقرية» الإنسان. وههنا يتجلى للقارئ المنصت المتدبر ـ إذا كانت لديه الثقافة الكافية ـ تَجَاوُز القرآن للعصر الذى شهد تنزيله، إذ ينفجر فى عقل ذلك القارئ سؤالٌ مؤداه: كيف يتسنى لإنسانٍ يعيش فى مجتمع أمى؛ يغلب على قومه الجهل بالقراءة والكتابة فى ظلام القرن السابع الميلادى أن يتحدث عن تصور الكون بحراً هائلاً يزداد اتساعًا بمرور الزمن، تمخر عبابه النجوم والكواكب التى تجرى كالسفن، وهو الرجل الذى يعيش فى الصحراء تحاصر الرمال والجبال عينيه البشريتين ولم يَرَ بحرًا حتى مات؟!.. وكيف يشبّه الجبال بالأوتاد؟.. بل كيف يصف مراحل تكوين «تخليق» الإنسان جنينًا داخل الرحم بدقة مدهشة، على حين لم

(١) انظر كتابنا «القرآن معجزة كل العصور» الصادر فى سلسلة كتاب الشعب ـ دار الشعب بالقاهرة ـ ١٤٢١ هـ/ ٢٠٠١م.

يكشف «العلم» عن ذلك إلا بعد مرور ألف وأربعمائة سنة من النطق بهذا الوحى؟!.

لقد انفجر القرآن - على غير توقع أو انتظار - ينبوعًا من العلم بالغ العمق والثراء، وبصياغة لغوية هى الغاية العليا فى الإبداع، فلم يسبقه مثيل ولم يلحقه نظير.. ولذلك استحوذ القرآن العظيم على إعجاب قارئه طوال العصور، وتمكن باقتدار من إثارة دهشة كل من استمع إليه وتأمل فيه مهما كانت ديانته أو ثقافته أو العصر الذى يعيش فيه.

وهكذا أجمع العرب والعجم قديمًا وحديثًا، مؤمنهم وكافرهم، على أن للقرآن «سرًّا» نافذًا فى قلوب مستمعيه وقارئيه، وأن له قدرة ذاتية عجيبة على التأثير فى نفس الإنسان، وهذه القدرة البالغة على التأثير هى ما اصطلح على تسميتها «بلاغة القرآن»، حتى أن كفار قريش الذين رفضوا رسالة القرآن وحاربوا نبيه ﷺ ساعين إلى قتله والخلاص منه.. حتى هؤلاء اعترفوا بقدرة القرآن على الاستحواذ على عقلهم ووجدانهم، حتى قالوا عنه إنه «سحر»، ووصفوا النبى الناطق به ﷺ بأنه ساحر شاعر أو شاعر ساحر!.

ومن محاولة الإنسان فهم «سر» بلاغة القرآن وإدراك بعض معانى هذا النص المعجز الحكيم، نشأ علم التفسير وأوجب واجباتنا - ونحن فى هذه اللحظة الفارقة من تاريخ الإنسانية، حيث عصر العولمة الذى

أصبح يهدد هويتنا مُغْرِقًا ملامحنا الذاتية فى طوفان التغريب ـ أن نمعن النظر فى تراثنا، فنزيل الأخطاء والشوائب والأوهام، ونرفع التراب ـ الذى تراكم عبر أزمان التخلف ـ وخطايا التاريخ عن جوهر ثقافتنا الفذة التى أخرجت للناس خير أمة.

وبهذه الرؤية علينا أن نفحص «تراث» علم التفسير كما تركه لنا أسلافنا، لنكتشف ما شاب منهجهم وجهدهم من خطأ وقصور لنتمسك فقط بجوهرما أبدعته عبقريتهم الإنسانية لاستكشاف هذا النص المعجزة الذى لا تَفْنَى عجائبه ولا يَخْلُقُ ـ أى: يَبْلَى ـ على كثرة الرد، ولذلك سيظل جديدًا فى كل العصور، وسيواصل فيضه على عقل الإنسان كلما جلس إليه منصتًا راغبًا فى المعرفة والتزود من العلم حتى يرث الله الأرض وما عليها.

وأول وأخطر ما شاب اجتهاد مفسرينا هو افتقادهم إلى الرؤية الشاملة ذات النظرة الكلية للنص القرآنى فى مجموعه عند محاولة فهم آية أو مجموعة من الآيات، فترى المفسر يحاول أن يجد معنىً لكلمة غامضة مقتطعًا هذه الكلمة من سياقها فى الآية، غير منتبه إلى ما قبلها وما بعدها، فضلاً عن أنه لا يعطى اهتمامًا كافيًا لموضع الآية كلها فى سياق مجموع الآيات التى جاءت فيه، ومن ثَم فإنه يبحث عن معنى اللفظة فى خارج القرآن، وغالبًا ما يصل إلى نتيجة خاطئة لأنه لم يستحضر النص القرآنى فى مجموعه عند البحث عن معنى

اللفظة التى يريد استجلاء غموضها ولعل أشهر الأمثلة على ما نقول هو زعمهم بأن «الخَلْقَ» يعنى الإيجاد من عدم، رغم أن القرآن لم تَرِدْ به لفظة «العدم» هذه، وكذلك السنة النبوية الشريفة. والقارئ المتدبر المستحضر لمجموع النص القرآنى يعلم يقينًا أن القرآن المجيد يستعمل لفظ «الخَلْق» ليعنى الإخراج أو الإظهار والصناعة والتكوين، فمن أين جاء «المفسرون» بالعدم؟! ولن نضرب الكثير من الأمثلة حتى لا نطيل، فنحن ههنا فى مقام التقديم الذى يضيق عن التفصيل.

وأعتقد أن هذه النظرة الجزئية هى التى أملت على أهل التفسير قديمًا طريقتهم فى تناول القرآن آية آية، أو فقرة فقرة، يحاكون ما كان يفعله شُرّاح ونقاد الشعر عندما كانوا يتناولون القصائد بيتًا بيتًا، الواحد تلو الآخر، غير عابئين بما كان قبله وما يكون بعده، لأنهم كانوا «يعتقدون» أن بيت الشعر - وليس القصيدة فى مجموعها - كائن قائم مستقل مغلق على ذاته.. ولقد أدت هذه الطريق إلى أخطاء كثيرة لا مجال لذكرها هنا.. ولقد حاكى أغلب المفسرين المعاصرين - للأسف - أسلافهم الذين حاكوا بدورهم شُرّاح القصائد القديمة.

وأسوأ ما فى هذه الطريقة التقليدية ليس الأخطاء التى وقع فيها المفسرون القدماء والمُحْدَثُون، ولكن أسوأ ما فيها أن القارئ يكاد لا

يخرج بشىء ذى بال بعد قراءة بضع - وأحيانًا - عشرات الصفحات. والثمرة الحقيقية المُرَّة - أو بالأحرى: المفزعة - لهذا، هى أن كتب التفسير لا تُقرأ إلاَّ قليلاً.. بل نادراً.. وإنما يضعها الناس غالبًا فى المكتبات على سبيل التبرك بها، والتزين والتفاخر بأن لديهم «أمهات» الكتب!.

وبهذه النظرة الجزئية وهذه الطريقة التقليدية، غفل المفسرون عن أن القرآن كائن حى ينير بعضُه بعضًا، أو يفسر بعضُه بعضًا.. وغفلوا عن أن السياق وحده هو أعظم شارح للنص القرآنى البديع.

وعلى سبيل المثال، فلنسأل ما هى المحاولات الجديرة بالاعتبار التى قام بها المفسرون قديمًا وحديثًا لجمع أشتات قصة موسى - عليه الصلاة والسلام - التى تناثرت فى سور القرآن وضمها فى سياق واحد، ثم ترتيبها بالعقل زمنيًا ليتمكن القارئ من رؤية شاملة لحياة هذا النبى الذى ترددت أنباء قصته فى جم غفير من آيات القرآن؟.

والإجابة لا شىء!.

والنتيجة هى أنْ تُركت أسئلة كثيرة بلا إجابة، وشاعت أخطاء فادحة حتى صارت كالحقائق الدينية التى لا ينبغى مناقشتها.

وشاب اجتهاد مفسرينا جهلٌ بتاريخ بنى إسرائيل - بصفة خاصة - وغيرهم من الشعوب التى تناولها القرآن الكريم فى سياق قصصه - بصفة عامة - مما أدى بهم إلى الوقوع فى أخطاء كبيرة زاد منها

انزلاقهم إلى الأخذ بروايات اليهود الذين دخلوا أو ادعوا الدخول فى الإسلام فيما عرف باسم «الإسرائيليات»، و التى يرويها المفسرون على صفحات متطاولة وبإسهاب شديد، ثم يشككون فى صحتها أو يفندونها باختصار شديد، ولا يجنى القارئ طائلاً من وراء كل ذلك الحشو.

وإذا كان لهم بعض العذر فى بعض الجهل لأن العصر الذى عاش فيه كلٌ واحدٍ منهم لم يُتَحْ له المعرفة الكافية، فإن الذى لا عذر فيه هو النقل بكل هذه الوفرة والسهولة عن أقوال لا دليل عليها!

كما يصر المفسرون - خاصةً القدماء منهم - على حشد كل الاراء التى قيلت فى شرح معنى لفظ أو آية - رغم سخافة أو تفاهة كثير من هذه الآراء - كما لو كانت ضخامة التفسير دليلاً على جودته.. ولذلك ينقل المفسرون من بعضهم. ويكفى أن نذكر مثالاً صارخًا على هذا النقل الحرفى بالكلمة والحرف - بل وعلامات الترقيم - تفسير **الإمام النسفى** المسمى (تفسير القرآن الجليل المسمى بمدارك التنزيل وحقائق التأويل) الذى يعد نسخة مختصرة حرفيًا من تفسير **الزمخشرى** المسمى (الكشاف عن حقائق غوامض التنزيل وعيون الأقاويل فى وجوه التأويل).. **فالنسفى** ينقل حرفيًا بعض ما قاله **الزمخشرى**.

ويعمد كثير من المفسرين إلى توضيح ما هو واضح لكل من يعرف

العربية، ويتركون الكثير من الغوامض دون إشارة.. ولذلك تتضخم التفاسير دون أن تقول شيئًا فى أحيان كثيرة.

وكمثال على ما نقول، نسوق ما ذكره ابن كثير فى تفسير قوله تعالى ﴿وأيّدهم بروح منه﴾، حيث قال: «.. وقال ابن عباس: ﴿وأيدهم بروح منه﴾ أى قَوّاهم»!

فهذا التفسير لم يفسر شيئًا. وهل من المعقول أو المقبول أن يستعمل الله ثلاث كلمات - ﴿وأيدهم بروح منه﴾ - للتعبير عن معنىً يُصاغ فى كلمة واحدة «قَوّاهم»؟!

ما معنى «بروح منه»؟.. أو من هو «الروح» الذى أيدهم الله به؟.. كان هذا هو السؤال الذى يبحث عن إجابة.. أما «قواهم» هذه فلم تَقُلْ شيئًا.

ومما يعيب جهد بعض المفسرين أن يتخذوا من تفسير القرآن ميدانًا لمناقشة واستعراض المسائل المتعلقة بالعلم الذى تَخَصَّصَ فيه المفسر، أو بالمذهب الذى يتخذه.. ومن ثَم فهو يلوى النص القرآنى ليوافق مذهبه، ويبعد القارئ عن رسالة القرآن ومحاولة فهم ما يريد الله إبلاغه ليلقى به فى متاهات القضايا التى تخص المفسر لا القارئ. ولعل تفسير الزمخشرى خير مثال على هذا، حيث حاول كثيرًا لَىَّ ألفاظ القرآن لتوافق مذهب المعتزلة الذى يعتنقه.

لقد كان للقدماء اجتهادهم المشكور فى تفسير القرآن الكريم، وعلينا أن نستفيد بأفضل ما أثمر عنه اجتهادهم.. كما كانت لهم أيضًا أخطاؤهم، وعلينا أن نتركها ولا نتشبث بها حتى لا نكون مثل الذين ﴿ **قَالُوا حَسْبُنَا مَا وَجَدْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا** ﴾[(1)].

ومن الناحية الأخرى، فقد أتاح لنا عصرنا معرفة هائلة لم تكن متاحة لأسلافنا، وفى هذه المعرفة دلائل على صحة القرآن الكريم وصدق النبى **محمد** ﷺ الذى نطق به، لأن الله قد وعد بتحقق هذا حين قال ﴿ **سَنُرِيهِمْ آيَاتِنَا فِي الْآفَاقِ وَفِي أَنفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الْحَقُّ أَوَلَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ** ﴾[(2)].

فهذه الثورة العلمية الهائلة التى يشهدها عصرنا، تحمل فى جوهرها ـ كما تفصح الآية ـ بيان الأدلة التى تبرهن على صحة صدور القرآن المجيد من الله وحيًا إلى نبيه ﷺ الذى أبلغ ما أوحى إليه.. فالعلم يضىء لنا النص القرآنى، ولا شك أن هذا يقتضى منا أن نعاود النظر مرة بعد أخرى فى القرآن الكريم بنور العلم الذى يواصل الله إتاحته للإنسان ليتيقن أن هذا القرآن هو الحق الذى جاء من الله عبر الوحى إلى النبى ﷺ.

وبموجب نص هذه الآية، يأمرنا الله بتجديد فهمنا للقرآن مع زيادة

---

(1) سورة المائدة، الآية ١٠٤ .

(2) سورة فصلت، الآية ٥٣ .

العلم الذى يقدم لنا المزيد من الأدلة على صدق النبى ﷺ.. وبهذا التجديد يزداد الإيمان حتى نبلغ اليقين.

فهذه الآية إذن دعوة دائمة مستمرة إلى يوم البعث من الله بتجديد تفسيرنا للقرآن المجيد، ولذلك لم يقم النبى ﷺ بتفسير القرآن، بل ترك الباب مفتوحًا على مصراعيه أمام العقل الإنسانى لينهل من هذا الكنز العلمى الإلـهى، لأنه ﷺ لو قدم تفسيرًا للقرآن الكريم لوضع قيدًا صارمًا على العقل الإنسانى يستحيل الخروج من أغلاله، لأن تقديم تفسير يخالف ما قاله النبى ﷺ يعد خروجًا على مقتضيات الإيمان، وفى نفس الوقت فإنه ﷺ كان يعلم أن القرآن يشير إلى علوم كثيرة ومعانٍ عميقة لا يستطيع عصر التنزيل فى القرن السابع الميلادى أن يقبلها، فترك التفسير ميدانًا واسعًا مفتوحًا للعلماء من البشر على مر العصور. فما هو التفسير الذى يستحق هذا الاسم؟!

التفسير جهد بشرى عقلى يتضمن ثلاثة أعمال:

١- جَمْع كل ما يخص قضية أو مسألة من المسائل التى تحدث عنها القرآن فى أنحاء متفرقة من سوره، وضمه فى سياق واحد بغية الإجابة عن الأسئلة التى تثيرها فى العقل هذه القضية أو تلك المسألة. وأعتقد أن مجرد القيام بهذا العمل الذى يحتاج إلى بذل الجهد والاجتهاد، يحل بمفرده كثيرًا من المشاكل، ويجيب عن الكثير من الأسئلة التى يبحث العقل عن الإجابة عليها..

ولذلك فإن تفسير القرآن موضوعيًا - أعنى دراسة القضايا التى تناولها القرآن فى سوره المختلفة - هى أفضل طريقة للحصول على فهم أفضل لرسالة الله إلينا.. فإذا كان القرآن هو النور المبين الذى أوقد الله لنا سراجه ليضىء لنا طريقنا فى هذه الحياة الدنيا، فإن أفضل طريقة لتناول القرآن هى اتخاذه نبراسًا يرشدنا ويهدى خطانا فى أى قضية من القضايا التى تشغل عقولنا الباحثة عن العلم.. ومن ثَم يجب على المفسر أن يجمع أشتات الآيات التى تناولت موضوعًا واحدًا أو قضية بعينها ويضع الأسئلة التى يجب الإجابة عنها، ثم ينظر كيف تجيب هذه الآيات التى اجتمعت فى سياق واحد عن تلك الأسئلة. ومغزى هذا العمل الأول هو الإيمان بأن القرآن كائن حى تتصل جميع خلاياه أو أجزائه مع بعضها برباط وثيق عميق.

٢- تفصيل ما ذكر مجملاً، أى شرح وبسط ما جاء على سبيل الاختصار.. وغالبًا ما يؤدى العمل الأول إلى إنجاز هذا العمل الثانى، فما ذكره الله مجملاً فى موضع يفصّله فى موضع ثان، كما أن الأحاديث النبوية الشريفة هى الينبوع الذى يجب أن ينهل منه المفسر لتفصيل ما أجمله القرآن.. أى لتحقيق هذا العمل أو الهدف.

٣- التأويل، ومعناه كشف (أو تجلية) الغموض، أو إزالة اللبس ورفع

الشبهة، أو محو التناقض الذى قد ينشأ فى العقل عند قراءة النص القرآنى الذى وصف بحق أنه حَمّال أوجه.. يعنى يحتمل الكثير جدًا من المعانى التى تسوغها اللغة، ولكنها قد تتضارب مع بعضها، أو تختلف وتتناقض مع مقتضيات الشريعة أو العقل.. ولا يتم التأويل إلاّ بصرف معنى اللفظ المقصود إلى غير المعنى الظاهر المحسوس الذى يتبادر إلى العقل بحكم الاستعمال المباشر للفظ، أو باختيار أحد المعانى دون غيره مع التدليل على صحة هذا الاختيار لتحقيق التأويل الصحيح. والتأويل الصحيح هو أهم ما يُطْلَب من المفسر الجديد بهذا الاسم، لأن كشف الغموض وإزالة اللبس ومحو التناقض - أى بيان «سر» المسألة الملغزة - هو غاية العقل الباحث عن الفهم.

والتأويل ضرورة عقلية وشرعية يفرضها النص القرآنى نفسه، إذ يقول الله - سبحانه وتعالى - واصفًا آيات وحيه: ﴿ هُوَ الَّذِي أَنزَلَ عَلَيْكَ الْكِتَابَ مِنْهُ آيَاتٌ مُّحْكَمَاتٌ هُنَّ أُمُّ الْكِتَابِ وَأُخَرُ مُتَشَابِهَاتٌ فَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَابَهَ مِنْهُ ابْتِغَاءَ الْفِتْنَةِ وَابْتِغَاءَ تَأْوِيلِهِ وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُ إِلاَّ اللَّهُ وَالرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ يَقُولُونَ آمَنَّا بِهِ كُلٌّ مِّنْ عِندِ رَبِّنَا وَمَا يَذَّكَّرُ إِلاَّ أُوْلُوا الأَلْبَابِ ﴾(1).

(1) سورة آل عمران، الآية ٧ .

وتوضح الآية الكريمة أن الآيات القرآنية تندرج - من حيث قدرة العقل البشرى على فهمها وإدراك معناها ـ تحت قسمين:

الأول يضم الآيات المُحْكَمَات، وهى الآيات المصاغة بألفاظ واضحة الدلالة، وعلى نسق يؤدى إلى معنى واحد يصل إليه كل من يعرف اللغة العربية. وهذه الآيات المحكمات يجب اعتبارها «أم الكتاب»، أى المرجع الذى يجب اللجوء إليه عند الاحتكام والفصل فى الخلافات التى تنشأ عند محاولة إدراك معنى القسم الثانى من القرآن ـ الآيات المتشابهات ـ وهى الآيات التى تحتمل أكثر من معنى، والتى يمكن فهمها على أكثر من وجه.

﴿ فَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ ﴾ وهم المنافقون الذين يظهرون الإسلام ويبطنون الكفر، فيتمسكون بالمتشابه من الآيات ويعلنون اتباعهم لأحكامها ومقتضياتها، وهذا هو معنى قوله ـ سبحانه وتعالى ـ ﴿ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَابَهَ مِنْهُ ﴾.. وما حملهم على هذا إلا رغبتهم فى إضلال المؤمنين بإشاعة الشبهات ونشر الخلافات التى قد تثيرها الأوجه المختلفة للآيات المتشابهة، وهذا هو معنى قوله ـ جلَّ وعلا ـ ﴿ ابْتِغَاءَ الْفِتْنَةِ ﴾، وهم فى الحقيقة لا يؤمنون بالقرآن.. لا بمحكمه ولا متشابه.. وإنما هم يرغبون فى صرف معنى الآيات المتشابهة إلى المعنى الذى يوافق أهواءهم ويحقق منافعهم الدنيوية الباطلة، تيسيرًا

لخروجهم على مقتضيات الإيمان، وتبريرًا لسلوكهم المخالف للشريعة.. وهذا معنى قوله ﴿ وَابْتِغَاءَ تَأْوِيلِهِ ﴾، يعنى بقصد صرف اللفظ إلى معنى لا يريده الله، وإنما يلائم أهواءهم ومصالحهم. وهذا إذن هو التأويل الخاطئ أو التأويل الباطل. أما التأويل الصحيح أو التأويل الحق فهو الذى ذكره الله بقوله ﴿ وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُ إِلاَّ اللَّهُ ﴾، يعنى: ولا يعلم المعنى الصحيح المقصود من المتشابه القرآنى إلا الله سبحانه وتعالى.. ﴿وَالرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ ﴾ أيضًا يعلمون ذلك المعنى المقصود بتعليم الله لهم، ولذلك فإنهم ﴿ يَقُولُونَ آمَنَّا بِهِ كُلٌّ مِّنْ عِندِ رَبِّنَا ﴾، معلنين إيمانهم بالمتشابه من القرآن، متيقنين ومؤكدين أنه صادر من الله.. مثله مثل المُحكم ﴿ كُلٌّ مِّنْ عِندِ رَبِّنَا وَمَا يَذَّكَّرُ إِلاَّ أُوْلُوا الأَلْبَابِ ﴾.

والسر وراء هذا التقسيم إلى محكم ومتشابه أن وحى الله مقصود به امتحان الإيمان فى القلوب، لأن الدنيا دار ابتلاء.. أما الحقيقة الكاملة فستظهر للجميع جلية واضحة فى الآخرة.

انظر أخى القارئ كيف استعمل الله نفس اللفظ فى نفس الآية للدلالة على معنيين مختلفين، بل متناقضين.. فقوله ﴿ وَابْتِغَاءَ تَأْوِيلِهِ ﴾ يعنى صرف الألفاظ إلى معانى باطلة، فالتأويل الخاطئ أو الباطل يوافق «الهوى» البشرى، ويخالف نصًا محكمًا، أى قاعدة

شرعية قطعية الدلالة.. وقوله ﴿ وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُ ﴾ يعنى صرف الألفاظ إلى معنىً حق مقصود من الله، أى فهم «السر» وإدراك الوجه الذى يريده الله، ولا يُستطاع التأويل الصحيح إلاّ بتوفيق وإلهام من الله الذى يَجُودُ على عبده الصالح بفيض علمه. والتأويل الصحيح أو الحق يوافق الآيات المحكمة، وتتوافر على إثبات صحته سائر الأدلة النقلية والعقلية، ولابد له أن يلتزم بقواعد اللغة العربية التى نزل بها «هذا اللسان العربى المبين»!

وبعد.. فلقد حاولتُ فى هذه المقالات إنجاز جزء صغير من ذلك التفسير المنشود الذى وصفتُ آنفًا أهم خصائصه وملامحه من خلال تناول القرآن الكريم للماء، ذلك السائل العجيب الذى جعله الله وعاءً للروح وسراً للحياة.

وقد صغتُ الكتاب على هيئة رحلة، تبدأ من شَرْبة الماء التى نتناولها فى قيظ الصيف.. متنقلاً بين السماء والأرض.. ثم عائدًا فى عكس حركة الزمن إلى الوراء، حيث بدأ الكون، وخرج الماء من الأرض وكان أصلاً لكل شىء حى.

والآن لنرحل مع الماء عائدين إلى البداية...

١

من السماء نشرب الماء..
ونأكل الطعام

فى وقت الظهيرة بالصيف، عندما يشتد القيظ ويستبد بنا العطش، فإننا نهرع إلى الماء للخلاص من ألم الظمأ.. وسواء كنا بدوًا رُحَّلاً نعيش فى الصحراء ونعتمد على عيون الماء التى تنفجر ـ أو نفجرها ـ بين الحجارة، أو كنا فلاحين نعيش فى القرى ونحفظ الماء فى أوعية من الفخار، أو كنا من سكان المدن الحديثة نبرّد الماء فى الثلاجات أيًا ما كانت مواضعنا أو مواقعنا الحضارية على هذا الكوكب.. فإن الله يوقفنا جميعًا ـ نحن البشر ـ ليسألنا.

﴿ أَفَرَأَيْتُمُ الْمَاءَ الَّذِي تَشْرَبُونَ ﴿٦٨﴾ أَأَنتُمْ أَنزَلْتُمُوهُ مِنَ الْمُزْنِ أَمْ نَحْنُ الْمُنزِلُونَ ﴿٦٩﴾ لَوْ نَشَاءُ جَعَلْنَاهُ أُجَاجًا فَلَوْلَا تَشْكُرُونَ ﴾(١).

إنه يدعونا إلى توجيه عقولنا إلى الماء العذب الذى نشربه لنرى حقيقته عندما نسأل: من أين جاء، وكيف أتى إلينا؟! ويجيبنا عبر توجيه سؤال آخر قائلاً:

﴿ أَأَنتُمْ أَنزَلْتُمُوهُ مِنَ الْمُزْنِ أَمْ نَحْنُ الْمُنزِلُونَ ﴾؟! فأعلمنا - سبحانه وتعالى - أن الماء العذب الذى نشربه ليس له من مصدر إلاّ السحاب المسرع فى السماء والمثقل بالماء؛ فالمُزْنُ جمع مُزْنَة، وهى السحابة.. وأصل الكلمة يعود إلى معانى الإسراع أو الركض، أو التفضل والعطاء والمدح، أو الثناء والامتلاء(٢).

ويلفت القرآن الكريم أنظارنا إلى الحقيقة التى قد تغيب عن عقولنا، وهى أن الماء العذب الذى يمكننا شربه له مصدر واحد لا شريك له هو السحاب المتحرك فوق رؤوسنا فى أقرب سماء إلى أرضنا.. أعنى الغلاف الجوى، وتحديداً الطبقة الدنيا منه المسماة التروبوسفير "Tropo Sphere" طبقة التقلبات الجوية.. فمن هذه السماء يأتينا الماء الذى نشربه، سواء حصلنا عليه من نهرٍ جارٍ أو عين ماء تنبجس بين الصخور.. ويمن الله الجواد الكريم علينا بأنه وحده -

(١) سورة الواقعة، الآيات ٦٨ : ٧٠ .

(٢) راجع مادة «مزن» فى لسان العرب لابن منظور - طبعة دار المعارف - ص ٤١٩٤، ٤١٩٥ .

سبحانه وتعالى - الذى مكننا من الحصول على هذا الماء العذب الفرات، لأنه وحده - سبحانه وتعالى - القادر على إنزال الماء من السحاب فى السماء، وإننا نحن البشر عاجزون عن الإتيان بذلك.. وفى قوله - سبحانه وتعالى: ﴿ **أَأَنتُمْ أَنزَلْتُمُوهُ مِنَ الْمُزْنِ أَمْ نَحْنُ الْمُنزِلُونَ** ﴾[1] تجد ظاهرٌ للقدرة البشرية على مر العصور، وبهذا التحدى أقام الله مشَابهةً أو تماثلاً بين إنزال المطر وإنزال القرآن؛ الأمر الذى تتجلى مظاهره وتتعدد مواضع ذكره فى فضاء القرآن الكريم الواسع، والذى سنعرض بإذن الله لبعض آياته ملوّحين لبعض دلالته.

وتحقيقًا لهذا التحدى، قام الإنسان فى الرابع الأخير من القرن العشرين بمحاولات عديدة لإسقاط المطر صناعيًا، وتعتمد هذه المحاولات على «تلقيح» أو حقن الغمام (السحاب المحمل ببخار الماء) ببعض الأملاح والأكاسيد لتكون هذه المواد الكيميائية بمثابة أَنْوِيَة - أو نُوَيّات - يتجمع حولها بخار الماء المتكثف على هيئة قطرات ماء فى السحب المتجمعة هناك فى طبقة التروبوسفير بالغلاف الجوى عند درجات الحرارة شديدة الانخفاض.. وقد باءت كل محاولات البشر لإسقاط المطر صناعيًا بالفشل. وقد تيقن الإنسان - رغم التقدم

(١) قوله - سبحانه وتعالى - «نحن»، وتعبيره فى هذا المقام - مقام إنزال المطر وإحياء الأرض - بضمير المتكلم الجمع فيه إشارة إلى حضور «روح الله».. الكائن الأول الذى جعله الله أصلاً لكل شىء، وسببًا فى ظهور كل شىء، ووسيلة يهب بها الحياة لكل شىء.. فلأنه بحضوره يجمع كل شىء فى الحضرة الإلهية، ناسب ذلك التعبير بضمير الجمع المتكلم «نحن».

العلمى الكبير فى مجال الطبيعة (الفيزياء) الجوية بعدم جدوى هذه المحاولات.. على الأقل لأن الإنسان لا يستطيع التحكم فى حركة الرياح التى تحمل السحاب الملقح صناعيًا، ومن ثَم فسوف تسوقه إلى أماكن بعيدة لا يتحكم الإنسان فى اختيارها، فتُسقط الأمطار فى مواضع غير التى أرادها، لأن الله وحده - سبحانه وتعالى - هو المتحكم فى حركة الرياح، فهو - جلّ فى علاه - المتصرف الذى يرسل الرياح التى تسوق السحاب إلى المواضع التى تختارها العناية الإلهية لينزل فيها ماء السماء، فيحيى الأرض بعد موتها فى سياق حركة محكومة بقانون التسخير.. ﴿ وَتَصْرِيفِ الرِّيَاحِ والسَّحابِ الْمُسَخَّرِ بَيْنَ السَّمَاءِ وَالأَرْضِ لآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴾[١].

وهذا التصريف الإلهى يشير دون أدنى شك إلى القوانين التى تحكم حركة الرياح بين السماء والأرض.. أى فى أسفل الطبقة الدنيا من الغلاف الجوى فيما يسمى «دورة الرياح العامة»، حيث تتوقف حركة السحاب على حركة الرياح لأن الرياح هى التى تسوق السحاب.

وليس الإنسان وحده هو المحتاج إلى الماء العذب الذى تعطيه السماء، وإنما تشاركه فى هذا الاحتياج الدواب (الحيوانات) والنباتات.. ولا حياة للإنسان على الأرض إلاَّ فى وجود هذه البيئة الحيوية التى تكوِّن النباتات والدواب أهم عناصرها. يصف الله - جل

---

(١) سورة البقرة، الآية ١٦٤ .

وعلا - فضله على البشر قائلاً: ﴿ هُوَ الَّذِي أَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً لَّكُم مِّنْهُ شَرَابٌ وَمِنْهُ شَجَرٌ فِيهِ تُسِيمُونَ ⑩ يُنبِتُ لَكُم بِهِ الزَّرْعَ وَالزَّيْتُونَ وَالنَّخِيلَ وَالأَعْنَابَ وَمِن كُلِّ الثَّمَرَاتِ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴾(١).

* ﴿ تُسِيمُونَ ﴾: أى تطلقون (ترسلون) أنعامكم لترعى حيث شاءت فى منابت الشجر.

وقوله ﴿ وَمِنْهُ شَجَرٌ ﴾ يعنى: ويَخرج من الماء النازل من السماء شجرٌ فيه ترسلون أنعامكم لترعى حيث شاءت. والشجر يخرج من الأرض وليس من الماء؛ فالماء وسيلة لإخراج الشجر من الأرض، أى كما قال الله - تبارك وتعالى - فى الآية التالية: ﴿ يُنبِتُ لَكُم بِهِ ﴾ أى بالماء.. فاختياره - سبحانه وتعالى - لحرف الجر «من» إشارة لطيفة إلى أن الشجر كان كامنًا مُسْتَوْدَعًا فى الماء النازل من السماء، محجوبًا عن الأبصار، لأن الماء يحمل فى باطنه سر الحياة الذى فاض عليه من «روح الله» واهب الحياة.

إن جزىء الماء يتكون بارتباط ذرتين من غاز الهيدروجين - وهو المادة الخام التى صُنعت منها جميع عناصر الكون - مع ذرة من غاز الأكسجين، وفى تلك الرابطة أودع الله سر الحياة كما أودع سر الخَلْق فى وصل الكاف بالنون فى قوله - سبحانه وتعالى: ﴿ كُنْ ﴾ الذى

(١) سورة النحل، الآيتان ١٠، ١١.

يخلق (يُظهر) الأشياء. وقوله سبحانه وتعالى ﴿ مِنْهُ ﴾ يشير إلى أن الشجر - بل وكل الكائنات الحية - إنما تكون كامنة بأرواحها في الماء النازل من السماء، مستورةً عن الأعين، تنتظر أن تلبس ثوبًا من الأرض لتصبح مشهودة. فالماء هو وعاء «الروح» سر الحياة.

﴿ شَجَرٌ ﴾ جمع «شجرة»، وهو اسمٌ جامعٌ لكل ما ينبت في الأرض.. وبهذا يكون الله - سبحانه وتعالى - قد بدأ بالإجمال أولاً، ثم أخذ يُفَصِّلُ في الآية التالية بعد ذلك قائلاً:

﴿ يُنبِتُ لَكُم بِهِ الزَّرْعَ وَالزَّيْتُونَ وَالنَّخِيلَ وَالأَعْنَابَ ﴾ مُعَدِّدًا بعض أنواع الشجر. ولما كان من المحال ذكر كافة الأنواع في آية واحدة، فقد اكتفى بما ذكر من الأنواع التي تهم الإنسان في حياته اليومية، حيث تشكل طعامه، وبدأ بالزرع.. وهو كل ما ينبت من الحَب لأنه يمثل الطعام الأساسي للإنسان، وأشار إلى الكثرة البالغة التي تستعصي على الإحصاء في مقام واحد قائلاً: ﴿ وَمِن كُلِّ الثَّمَرَاتِ ﴾، وهو قول يلفت نظر العقل المتحفز إلى التنوع المذهل في المملكة النباتية - أي مملكة الأشجار - وينبه القلب المتدبر إلى حقيقة أن كل ما على الأرض من أشياء إنما هو «بعض» ما عند الله في الغيب.. أعني هو الجزء الذي صار مشهوداً لنا نحن البشر من «الكل» الذي يحتفظ الله به في خزائن علمه.. وهي الحقيقة التي جلاّها قول الله - سبحانه وتعالى: ﴿ وَإِن مِّن شَيْءٍ إِلاَّ عِندَنَا خَزَائِنُهُ

﴿وَمَا نُنَزِّلُهُ إِلاَّ بِقَدَرٍ مَّعْلُومٍ﴾[1]. . أى لا يوجد أى شىء على الأرض إلاّ ويخرج من خزائن العلم الإلهى التى أودعت فيها أصوله، أى احتفظ فيها بمصادره الأولية. . ولا يصبح مشهودًا منه ـ وهذا هو معنى التنزيل ـ إلاَّ القدْر المحسوب الذى فرضه العلم الإلهى، إذ يتوالى خروجه من الغيب إلى الشهادة على مرآة السماوات والأرض. وخزائن العلم الإلهى هى كلماته المسطورة فى «ذلك الكتاب» الذى سجل الله فيه علمه[2].

﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَةً لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾

* «التفكر» : هو الاستدلال بالمشهود على الغائب الموجود وراء ظاهرِ أو «رسوم» الأشياء. . أعنى هو الصعود من المشاهدات على دَرَج (سُلَّم) الأدلة إلى الحقيقة الكامنة التى تضم مجموعة من الأشياء فى سياق واحد يحكم (يضبط) سلوكها، والتى تعد ـ هذه الأشياء ـ بمثابة إشارات تومئ إلى تلك الحقيقة أو تلويحات تنبه عليها. وهذا العمل العقلى (التفكر) هو مضمون العلم. وفى القرآن فإن التفكر يعنى الاستدلال بالمخلوقات على الخالق، لأن الخَلْق جميعًا هم مواضع تحقق الصفات الإلهية أو النوافذ التى نتطلع منها إلى الأسماء الإلهية.

---

(١) سورة الحجر، الآية ٢١ .

(٢) انظر التفرقة والتمييز بين «ذلك الكتاب» و «هذا القرآن» فى كتابنا (القرآن معجزة كل العصور) ـ دار الشعب ـ القاهرة ٢٠٠١ .

﴿ ذَلِكَ ﴾: إشارة إلى إنزال المطر وإنبات الشجر، ومن ثَم توفير الشراب والطعام للإنسان الذى يتغذى على الشجر (النبات) والأنعام. والآية هى العلامة المشهودة أو الدليل الظاهر على حقيقة باطنة.. وإذا كان فى إنزال المطر وإنبات الشجر «آية»، فما هى الحقيقة الباطنة التى تشير إليها هذه الآية؟.. أعنى عَلاَمَ يدل إنزال المطر وإنبات الشجر؟

الحقيقة الباطنة التى تدل عليها هذه الآية لها عدة أوجه؛ أولها هو عجز الإنسان عن أن يعيش معتمدًا على قدرته البشرية المخلوقة أو أن يستغنى عن رحمة الله ورعايته التى سَخرت من أجله كل شىء.

إن البدو سكان الصحراء الذين ينتظرون على أَحَرّ من الجمر ماء السماء فى موسم المطر كل عام ليشربوا ويسقوا أنعامهم ويُنبتوا زروعهم.. هؤلاء ربما يكونون أكثر البشر إدراكًا لحقيقة أن حياتهم هى هبة السماء. أما سكان وديان الأنهار الذين يعيشون على ضفافها فى المجتمعات الزراعية، والذين أنشأوا أقدم الحضارات البشرية، فربما يتناسون أن الأنهار العظيمة التى استقروا حولها إنما تولد أولاً فى السماء، وأنها ليست فى نهاية أمرها إلا طرقًا شقتها السماء بيد الأمطار التى تَوالَى هطولُها عبر أزمان طويلة.. فالنهر ليس سوى قناة أو مجرى تم حفره فى الطبقة السطحية المتفككة من قشرة الأرض بمعاول ماء السماء الذى استمر نزوله آلاف السنين. وإنها لشديدة

الشبّه بالقنوات أو المجارى المائية التى يشقها الإنسان بآلات الحفر فى سطح الأرض. والسؤال: ماذا يحدث عندما تقبض السماء يدها فتمسك بالماء الصاعد إليها ويمنع الله إنزال المطر؟

والإجابة: سوف تجف الأنهار كلها - حتى الكبرى منها مثل النيل ودجلة والفرات والجانج والدانوب والمسيسبى - فى غضون سنوات قليلة بأشعة الشمس التى ستواصل تبخير الماء السائل فى المسطحات المائية على اليابسة، بالإضافة بالطبع إلى تبخير ماء المحيطات والبحار. . ولن تمر سوى سنوات قليلة حتى تتحول الأنهار إلى مجرد شقوق طويلة جافة فى الطبقة السطحية من القشرة الأرضة. وسوف تنفد بالاستهلاك البشرى فى أثناء ذلك المياهُ المتجمعةُ فى العيون والآبار والينابيع الموجودة فى باطن القشرة الأرضية بين الصخور، لأن السماء هى أيضًا مصدر هذه المياه الجوفية، حيث تتسرب مياه الأمطار داخل الشقوق التى صنعتها يد العناية الإلهية لتحفظ الماء فى باطن قشرة الأرض.

هكذا يفقد الإنسان عند امتناع المطر كل ما تحتويه الأرض من ماء عذب، فلا يجد ما يشربه، ويعجز عن أن يسقى أنعامه، وعن أن ينبت زروعه. وفى كلمة واحدة: تزول كل صور الحياة، ويصير الإنسان على شفا الهلاك حيث يموت من الجفاف عطشًا.

فى هذا المقام يكون الإنسان فى أَمَسّ الحاجة إلى من يُغيثه،

ويعاين حقًا أن حياته هبة من الله قدمتها السماء بيد المطر: وفى هذا المقام يصف الله نفسه قائلاً: ﴿ وَهُوَ الَّذِي يُنزِّلُ الْغَيْثَ مِنْ بَعْدِ مَا قَنَطُوا وَيَنشُرُ رَحْمَتَهُ وَهُوَ الْوَلِيُّ الْحَمِيدُ ﴾(١).

سَمَّى المطرَ «غيثًا» لأنه يأتى ههنا إنقاذًا للكائنات الحية التى شارفت على الهلاك، ويأتى فى وقت تشتد الحاجة إليه، فهو «إغاثة» للملهوفين عليه.. ولذلك وصف القرآنُ على لسان يوسف - عليه الصلاة والسلام - العام الذى ستهطل فيه الأمطار على النهضبة الاستوائية بالحبشة وغيرها من أماكن تكوين نهر النيل فى إفريقيا بعد سبع سنوات عجاف اشتدت فيها الحاجة إلى الماء وتلهف المصريون على مجىء الفيضان حاملاً الرزق لأرضهم.. وصف ذلك العام بقوله: ﴿ ثُمَّ يَأْتِي مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ عَامٌ فِيهِ يُغَاثُ النَّاسُ وَفِيهِ يَعْصِرُونَ ﴾(٢).

ووصف القرآن طلب الكافرين للماء من السماء - وهم فى أشد العطش يعانون من حريق جهنم - بالاستغاثة، وذلك فى قوله - تعالى - ﴿ وَإِن يَسْتَغِيثُوا يُغَاثُوا بِمَاءٍ كَالْمُهْلِ يَشْوِي الْوُجُوهَ بِئْسَ الشَّرَابُ وَسَاءَتْ مُرْتَفَقًا ﴾(٣).

---

(١) سورة الشورى، الآية ٢٨ .

(٢) سورة يوسف، الآية ٤٩ .

(٣) سورة الكهف، الآية ٢٩ .

* ﴿ يَسْتَغِيثُوا ﴾ : أى يطلبوا الماء وهم فى أشد العطش؛ فالاستغاثة هى استسقاء الملهوف.. ولكن ياحسرتهم، إذ يأتيهم ماء يشوى الوجوه.

وقد مجَّدَ الله نفسه - سبحانه وتعالى - بإنزال الغيث (ماء السماء) عند اشتداد الحاجة إليه، وقَرَنَهُ بعلم الساعة المخبوء وراء ستار الغيب، وعلم المخبوء فى الأرحام، وعلم ما تأتى به الأيام من عمل أو موت.

﴿ إِنَّ اللَّهَ عِندَهُ عِلْمُ السَّاعَةِ وَيُنَزِّلُ الْغَيْثَ وَيَعْلَمُ مَا فِي الأَرْحَامِ وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ مَّاذَا تَكْسِبُ غَدًا وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ بِأَيِّ أَرْضٍ تَمُوتُ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ ﴾(1).

يقول الله - سبحانه وتعالى - واصفا نفسه: ﴿ وَهُوَ الَّذِي يُنَزِّلُ الْغَيْثَ مِنْ بَعْدِ مَا قَنَطُوا وَيَنشُرُ رَحْمَتَهُ وَهُوَ الْوَلِيُّ الْحَمِيدُ ﴾(2).

«القنوط»: أشد اليأس(3) الذى يملأ القلب بالكآبة والتشاؤم.

﴿ مِنْ بَعْدِ مَا قَنَطُوا ﴾ من بعد أن بلغ بهم اليأس أشده وظنوا أنهم هالكون لا محالة. هنالك ينزل الله عليهم الغيث ﴿ وَيَنشُرُ

(1) سورة لقمان الآية ٣٤ .

(2) سورة الشورى الآية ٢٨ .

(3) راجع مادة قنط فى لسان العرب، ص ٣٧٥٢ (طبعة دار المعارف بالقاهرة).

رَحْمَتَهُ ﴾ فينقلب يأسهم أملاً وكآبتهم فرحا، وتشاؤمهم فألا واستبشارا.

﴿ رَحْمَتَهُ ﴾ رزقه أى ما يمدهم بالحياة، فهو - سبحانه وتعالى - يفيض عليهم بسر الحياة من «روحه» والماء (الغيث) هو وعاء ذلك «الروح» ولا يجادل أحد فى أن الرحمة ههنا تعنى الحياة التى تنتشر وتزدهر بعد نزول الغيث.

﴿الْوَلِيُّ ﴾ المقصود عند الحاجة إلى الهداية والمعونة فهو - سبحانه وتعالى - الجدير بأن يُقصد عند طلب الإرشاد والمساعدة.

﴿ الْحَمِيدُ ﴾ المتصف بها يستحق الثناء فهو الجدير بالمدح.

وأمام هذا العجز الإنسانى عن الاستغناء عن رحمة الله الذى تبديه «آية» إنزال المطر، وإنبات الشجر، لا يملك أحد من البشر حتى أعتى الكافرين وأكثرهم عنادا إلا أن يعترفوا بالحقيقة وينطقوا بالتسليم.

﴿ وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّن نَّزَّلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَحْيَا بِهِ الأَرْضَ مِنْ بَعْدِ مَوْتِهَا لَيَقُولُنَّ اللَّهُ قُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لا يَعْقِلُونَ ﴾[1].

﴿ قُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ ﴾ أَعْلِنْ أنه لا يستحق المدح إلاّ الله لأنه - سبحانه وتعالى - صاحب الفضل العظيم على الإنسان.

﴿لا يَعْقِلُونَ ﴾ لا يحفظون كلام الله يعنى لا يحتفظون به فى

(١) سورة العنكبوت الآية ٦٣ .

أوعية قلوبهم، فلا يضعونه أمام أنظار عقولهم (أفئدتهم).. ومن ثم فإنهم يعجزون عن إدراك المقصود منه لأنهم قد أخلفوا ما عاهدوا الله عليه قبل نزولهم إلى هذه الحياة الدنيا، وتناسوا تاركين ما ألزموا أنفسهم به من عبادة الله وحده وأطلقوا لأهوائهم العنان.

إننا ههنا فى هذه الآية أمام حقيقة الإحياء - إعطاء الحياة - فنحن إذن أمام عمل الروح الذى **أحيا الأرض بعد موتها**، والذى لا يملك أحد من الخلق المجادلة فى أنه صادر من الله وحده، وأنه قد فاض بسر الحياة على الماء النازل من السماء فصار الماء بذلك الفيض وعاءً «للروح» واهب الحياة لكل الأحياء،.

وههنا يتبدى الوجه الثانى للحقيقة الكامنة فى آية إنزال المطر، وإنبات الشجر، أعنى أن الماء هو وعاء الروح ويصبح قوله - سبحانه وتعالى - «ذلك» إشارة إلى الروح؛ سر الحياة الكامن فى الماء وهو ما لفت الله أنظارنا إليه فى خطابه للنبى ﷺ حين وصف المشهد الذى يعقب نزول المطر قائلاً: ﴿ **فَانظُرْ إِلَىٰ آثَارِ رَحْمَتِ اللَّهِ كَيْفَ يُحْيِي الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا إِنَّ ذَٰلِكَ لَمُحْيِي الْمَوْتَىٰ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ** ﴾(١).

﴿ **آثَارِ** ﴾ هنا هى النباتات: أى الشجر الذى خرج من الأرض فأحياها بفعل الماء فى التربة بدليل قوله - سبحانه وتعالى - فى

(١) سورة الروم الآية ٥٠ .

سياق الآية ﴿ كَيْفَ يُحْيِي الأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا ﴾ وبالشجر (النباتات) ستحيى الأنعام وسائر الدواب وبالجميع سيحيى الإنسان.

﴿ رَحْمَتِ اللَّهِ ﴾: روح الله واهب الحياة؛ الكائن الذى يهب الله منه الحياة، أى ينفخ الله منه فى الأشياء سر الحياة، ومن ثم تعد «أرواح» الكائنات بمثابة «أنفاس» أو «نفخات» من ذلك الروح ﴿ إِنَّ ذَلِكَ لَمُحْيِي الْمَوْتَىٰ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴾.

وعجز الإنسان عن أن يعيش معتمدا على قدرته البشرية المخلوقة فى جسده إنما ينبع أصلاً من أنه لا يملك حياته وإنما قد وهبت له الحياة من «روح الله» فحياة الإنسان فى هذا الجسد مجرد نفخة مأخوذة من ذلك «الروح» الذى يفيض بالحياة على كل شىء».. ومن ثم فإن جميع صور الحياة إنما تحتوى على نفس «السر» الذى أحياها.

هكذا يبرز لنا الوجه الثالث للحقيقة الكامنة فى آية إنزال المطر، وإنبات الشجر، وهو خروج الأنواع الحية كلها من مصدر واحد، وهو الوجه الذى أشار الله إليه بقوله.

﴿ وَفِي الأَرْضِ قِطَعٌ مُّتَجَاوِرَاتٌ وَجَنَّاتٌ مِّنْ أَعْنَابٍ وَزَرْعٌ وَنَخِيلٌ صِنْوَانٌ وَغَيْرُ صِنْوَانٍ يُسْقَىٰ بِمَاءٍ وَاحِدٍ وَنُفَضِّلُ بَعْضَهَا عَلَىٰ بَعْضٍ فِي الأُكُلِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴾[1].

---

(١) سورة الرعد الآية ٤ .

كما تدل آية إنزال المطر، وإنبات الشجر، على رعاية الله للإنسان وتسخيره كل شيء من أجل هذا المخلوق العجيب،.. ولذلك يمن الله علينا بقوله: ﴿ لَوْ نَشَاءُ جَعَلْنَاهُ أُجَاجًا فَلَوْلا تَشْكُرُونَ ﴾[1].

كان في مقدورنا أن نجعل ماء السماء ﴿ أُجَاجًا ﴾[2]، كثير الملوحة، شديد المرارة، ساخنًا لاذعا طعمه، لا تتحملون شربه، ولكن رحمة بكم جعلناه عذبا، فراتا، باردا، سائغا شرابه، أفلا يدعوكم هذا إلى شكر الله؟..

والسر في عذوبة المطر هو أنه يتكون من بخار الماء، أعني من الماء الذي يتم تبخيره أي تحويله إلى بخار له هيئة الغاز بفعل أشعة الشمس الواقعة على الأسطح المائية الشاسعة التي تغطي أكثر من ٧٠٪ من مساحة الكرة الأرضية، ويتصاعد هذا الماء المتبخر إلى الطبقة السفلى من الغلاف الجوي للأرض (المسماة بالتربو سفير)، واقتضت حكمة الله ورعايته لمخلوقاته على الأرض أن درجة الحرارة تنخفض بالتدريج كلما صعدنا في هذه الطبقة الملاصقة لسطح الأرض بمعدل ٦٠,٠ (٠,٦) درجة مئوية واحدة لكل مائة متر ارتفاع حتى يمكن أن تصل إلى درجة (٧٠-٨٠) درجة مئوية تحت الصفر،.. ومع انخفاض درجة الحرارة تقل قدرة الهواء على حمل

---

(١) سورة الواقعة الآية ٧٠..

(٢) راجع «أجج» في لسان العرب، ص ٣٠-٣١ (طبعة دار المعارف).

بخار الماء المتصاعد من الأسطح المائية التى تسخنها حرارة الشمس.. ومن ثم يتجمع بخار الماء على هيئة سحب، وفى هذه السحب يتكاثف بخار الماء على هيئة قطرات ماء أو قطع من البرد (ماء متجمد) وينزل فى صورة المطر،.. وقد اقتضت حكمة الله ورعايته لمخلوقاته على الأرض أن الماء عندما يتم تصعيده من الأرض إلى السماء بالتبخير فإنه يترك كل الأملاح التى كانت ذائبة فيه، وكل الشوائب التى كانت عالقة به، وهو سائل فى الأرض ويخلفها وراءه فى المحيطات والبحار والأنهار والبحيرات والمستنقعات والمجارى المائية ويصعد إلى السماء (الغلاف الجوى) نقيا طاهرا فى انتقال يناظر صعود «الروح» عند خروج «النفس» من الجسد بالموت.

بخار الماء - إذن - هو الماء النقى الخالص الذى لا تشوبه شائبة ويمكننا أن نقول أنه «روح الماء»،.. ومن ثم فإن المطر أو ماء السماء الناتج من تكثف بخار الماء فى السحب هو الماء النقى الخالص الذى لا تشوبه شائبة، ولا يخالطه شىء.. وأثناء نزول المطر قد تأخذ القطرات النازلة معها بعض ما يكون معلقا فى الهواء من شوائب، مثل: غاز ثانى أكسيد الكربون، وذرات التراب أو الرماد المتولد من البراكين، ولكن كل ذلك لا يكون إلا بنسب طفيفة جدا لا تفقد الماء عذوبته.

هذا هو المصدر الوحيد للماء العذب على الأرض ولذلك أثنى الله

على نفسه قائلاً: ﴿ وَهُوَ الَّذِي أَرْسَلَ الرِّيَاحَ بُشْرًا بَيْنَ يَدَيْ رَحْمَتِهِ وَأَنزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً طَهُورًا (٤٨) لِنُحْيِيَ بِهِ بَلْدَةً مَّيْتًا وَنُسْقِيَهُ مِمَّا خَلَقْنَا أَنْعَامًا وَأَنَاسِيَّ كَثِيرًا (٤٩) وَلَقَدْ صَرَّفْنَاهُ بَيْنَهُمْ لِيَذَّكَّرُوا فَأَبَىٰ أَكْثَرُ النَّاسِ إِلَّا كُفُورًا ﴾[1].

﴿ بُشْرًا ﴾: تبشيرا يعنى تمهيدا وإعلانا عن قرب ظهور (تحقق) نبأ سار وهو نزول المطر (الماء) الذى أودع فيه سر الحياة.

﴿ بَيْنَ يَدَيْ رَحْمَتِهِ ﴾: تسبق الحياة الكامنة فى الماء والموهوبة من الله والتى تستحق أن تنسب إليه - سبحانه وتعالى - فالرحمة هى الحياة.

يصور الله هنا الرياح كموكب يأتى ليزف إلى البشر وسائر المخلوقات على الأرض «نبأ» المطر الوشيك والذى يحمل فى باطنه الحياة كأن الرياح موكب يزف العروسين إلى منزل زواجهما على الأرض لتستمر الحياة.

ولقد ربط القرآن بين إرسال الرياح ونزول المطر ربطا وثيقا دقيقا مبينا العمل الهام الذى تقوم به الرياح فى إنزال المطر كما سنوضح فى الباب التالى.

﴿ طَهُورًا ﴾: طاهرا مطهرا لغيره. «طهور» صيغة مبالغة من

---

(1) سورة الفرقان الآيات ٤٨-٥٠ .

طاهر، فقد بلغ من شدة طهارته أن صار مشعا يبعث بالطهارة فيما حوله، فأصبح مطهرا لغيره وهذه الصيغة بيان بليغ أن ماء السماء هو أنقى صورة للماء على وجه الإطلاق، فالمطر هو الماء الخالص النقى الذى لا تشوبه شائبة.

والقرآن يعلمنا أن للحقيقة وجهين، ظاهر، وباطن، مثل النهار والليل والدنيا والآخرة.. ومن ثم ينبغى أن نفهم أن للطهارة وجهين؛ طهارة حسية ظاهرة هى طهارة الصورة أو نظافة الجسم، وطهارة خفية باطنة هى طهارة القلب أو «السر».

وطهارة ماء السماء تعنى - أولاً أو ظاهرا - نقاوته وخلوه من الشوائب، وهذه هى الطهارة الحسية الظاهرة وبها يُستعمل فى تنظيف الأجسام أو صور الأشياء.

وتعنى - ثانيا أو باطنًا - احتواءه على «أثر» من روح الله الذى يفيض بالحياة، أى أن الماء يحتوى فى باطنه على «شىء» من فيض روح الله الذى أُنِيطَ به إظهار (خلق) الأشياء، ومعرفة الله، وتثبيت الإيمان فى القلوب، وتلك الطهارة الباطنة هى ما يمكننا تسميتها «بالقداسة».

وإلى تلك الطهارة الباطنة (القداسة) أشار الله - سبحانه وتعالى - بقوله:

﴿ إِذْ يُغَشِّيكُمُ النُّعَاسَ أَمَنَةً مِّنْهُ وَيُنَزِّلُ عَلَيْكُم مِّنَ السَّمَاءِ مَاءً لِّيُطَهِّرَكُم بِهِ وَيُذْهِبَ عَنكُمْ رِجْزَ الشَّيْطَانِ وَلِيَرْبِطَ عَلَىٰ قُلُوبِكُمْ وَيُثَبِّتَ بِهِ الْأَقْدَامَ ﴾[1].

كان ذلك فى معركة «بدر» الكبرى بعد أن استقر عزم المؤمنين على مقاتلة الأعداء رغم أنهم لم يخرجوا أصلاً إلاّ لمهاجمة قافلة تجارية لقريش والاستيلاء على ما فيها من أموال. كان قرارا حاسما غير مجرى التاريخ ليس فى جزيرة العرب فقط بل تاريخ البشر جميعا على هذا الكوكب وكانت لحظة عصيبة كيف سيقاتلون جيش قريس وقد جاء فى أتم استعداد وأعتى تجهيز للقتال ويبلغ عدد جنوده ثلاثة أضعاف جيش المؤمنين؟! وضربت رياح الخوف والشك واليأس قلوبهم وملأتهم الحيرة. هنالك جاءتهم سكينة الله. أرسل الله إليهم نعاسا فأخذهم فى سلطانه فاستسلموا للنوم وهنالك ـ وهم نائمون ـ ملأ الله قلوبهم بالأمن وأزال خوفهم ﴿ يُغَشِّيكُمُ النُّعَاسَ أَمَنَةً مِّنْهُ ﴾.

﴿ يُغَشِّيكُمُ ﴾: يغطيكم. فجعل النعاس غشاء يغطى المؤمنين أو يتغطى به المؤمنون.

﴿ النُّعَاسَ ﴾: النوم المباغت القاهر الذى يسلب الإنسان إرادته ولا يملك له دفعا.

---

(١) سورة الأنفال الآية ١١ .

ولكن النعاس أو النوم بصفة عامة لا يستر أجسامنا، فما معنى يغشيكم هنا؟! أو بكلمات أخرى ماذا يغطى النوم منا؟! والجواب إنه يغطى أنفسنا؛ أى سرائرنا المخبوءة فى أجسادنا، . . . حيث ترحل إلى الغيب وتصير فى «البرزخ» بين الدنيا والآخرة دون أن تفقد اتصالها بالأجساد بواسطة «الروح» وإلاّ حدث الموت. يقول الله - سبحانه وتعالى - موضحا حقيقة النوم ﴿ اللَّهُ يَتَوَفَّى الأَنفُسَ حِينَ مَوْتِهَا وَالَّتِي لَمْ تَمُتْ فِي مَنَامِهَا فَيُمْسِكُ الَّتِي قَضَىٰ عَلَيْهَا الْمَوْتَ وَيُرْسِلُ الأُخْرَىٰ إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴾(1).

﴿ يَتَوَفَّى ﴾: يسترد والمعنى يعيدها إلى الغيب والآية تبين أن الموتى والنائمين تغيب أنفسهم وترحل إلى نفس المقام، ولكن النفس التى حُكِمَ عليها بالموت تبقى هناك ولا تستطيع العودة إلى الدنيا (الجسد)؛ عالم الشهادة فتظل محبوسة فى البرزخ وهذا معنى قوله ﴿ فَيُمْسِكُ ﴾ أما النائمة فإنها تنطلق عائدة إلى الشهادة، فتحدث اليقظة وهذا هو معنى قوله ﴿ وَيُرْسِلُ الأُخْرَىٰ ﴾ حتى تأتى اللحظة المعلومة التى يُحْكَمُ عليها بالموت فيها، فلا تستطيع أن ترجع إلى الشهادة مرة أخرى وهذا معنى قوله ﴿ إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى ﴾ يعنى عند الموت.

---

(1) سورة الزمر الآية ٤٢.

وخرج المؤمنون يوم «بدر» من النعاس وانتبهوا على قطرات الماء النازل من السماء فاستبشروا بقرب نصر الله لهم، وقد زايلهم الخوف والشك والحزن، وملأ الإيمان قلوبهم. يصف الله سبحانه وتعالى مشهد نزول المطر على المؤمنين قبيل نشوب القتال يوم بدر بقوله: ﴿ وَيُنَزِّلُ عَلَيْكُم مِّنَ السَّمَاءِ مَاءً لِّيُطَهِّرَكُم بِهِ ﴾ هذه هى الطهارة الحسية إذ استطاع المؤمنون أن يغتسلوا بماء السماء ويُذْهبوا عن أجسامهم الأدران التى تكونت من العرق والغبار ليستعيدوا نشاطهم.

﴿ وَيُذْهِبَ عَنكُمْ رِجْزَ الشَّيْطَانِ ﴾ هنا يشير إلى الطهارة الباطنة (القداسة) التى تزيل قذارة الشيطان،.. يعنى ما وضعه الشيطان فى صدورهم؛ أوعية قلوبهم من مخاوف وشكوك وشبهات وأحزان وظنون سيئة بالله، وما يسببه كل ذلك من اضطراب ويصنع ماء السماء هذه الطهارة الباطنة بما أودع فيه من فيض «روح الله».

ومن أجل تلك الطهارة الظاهرة والباطنة فرض الله على عباده المؤمنين الاغتسال بالماء استعدادا للصلاة، التى تعنى الاتصال بالله فيما تسميه السنة النبوية الشريفة «الوضوء» وهو لفظ مشتق من مادة «وَضَأَ» التى تعود بأصلها إلى «النور» لأنها تعنى البياض والحُسن والبهجة، وكلها من ثمار انبعاث النور (فهى قريبة الصلة من الضوء) وهذه: إشارة باهرة إلى أن الماء هو مستودع النور لأن «الروح» هو

النور الذى كشف كل شىء، والوضوء أو التوضأ يعنى التوجه إلى النور أى الاستضاءة بالماء.

﴿ولِيَربِطَ علَىٰ قُلُوبِكُمْ﴾: وليربط على قلوبكم حبل الإيمان.. يعنى ليثبت الإيمان فى قلوبكم. وفى هذا التعبير القرآنى استعارة يشبه الله فيها الإيمان بحبل يلتف حول قلوب المؤمنين ليربطها بخالقهم فصارت القلوب - فى هذه الاستعارة - مثل الحقائب يوضع فيها الإيمان الذى يلتف كالحبل حولها ليحفظ ما فيها، فإذا أرخى الحبل انفتحت الحقائب وخرج ما فيها ووقع على الأرض، أى ضاع الإيمان، وذلك عند الشدائد والتعرض للفتن أما إذا شُد الحبل وأحكم الرباط بقيت الحقائب (القلوب) محتفظة بما فيها (الإيمان).. وهذا ما صنعه الله من خلال المطر الذى ثبت الإيمان فى قلوب صحابة رسول الله ﷺ عشية احتدام القتال فى غزوة بدر الكبرى بفضل ما أودع فى الماء من روح الله.

﴿ويُثَبِّتَ به الأَقْدَامَ﴾ والتثبيت نوعان، الأول ظاهر وهو تثبيت التربة الرملية تحت الأقدام بفعل المطر مما يسهل حركة الأقدام عليها فيجعلها أكثر ثباتا أثناء السعى والجرى والكر والفر. والأقدام هنا أقدام الجنود من البشر وأقدام الخيول التى يحاربون فوقها. والآخر باطن وهو تثبيت الإيمان فى القلوب الذى يولد الشجاعة.

﴿ولَقَدْ صَرَّفْنَاهُ بَيْنَهُمْ﴾: أرجعناه (أو رددناه) وقسمناه بينهم فى

حركة دائمة لا تتوقف، . . وفى هذا بيان أن ماء السماء (المطر) قد جاء أصلاً من الأرض، إذ صعد إلى السماء من المحيطات والبحار والأنهار وغيرها من المسطحات المائية على هيئة بخار بفعل حرارة الشمس، . . ثم صرفه الله أى رده عن الصعود لأعلى، وأعاده إلى الأرض مرة أخرى فى صورة المطر تارة بعد أخرى. وقسّمه بين البشر وسائر الخلائق على ما تقتضيه حكمته ـ سبحانه وتعالى ـ ليحفظ الحياة على وجه الأرض، . . هنا يلفت الله أنظار العقول إلى التوزيع الإلهى الحكيم للماء فى الأرض الذى يضمن استمرار الحياة.

﴿ لِيَذَّكَّرُوا ﴾: ليتذكروا نشأتهم الأولى عندما أنبتهم الله من الأرض نباتًا، . .[١] وإذا تذكروا تلك النشأة القديمة ـ وهم يرون بأبصارهم النباتات تخرج من الأرض بعد موتها ـ كان يسيراً عليهم أن يؤمنوا، بل يتيقنوا من النشأة الآخرة عندما ينبتهم الله من الأرض تارة أخرى، بمثل هذا الماء الذى يشهدون نزوله من السماء يوم يبعث الله من فى القبور.

﴿فَأَبَىٰ أَكْثَرُ النَّاسِ إِلاَّ كُفُوراً ﴾ ولا شك فى أن الآيات السابقة قد أقامت تماثلاً بين القرآن كلام الله الذى يحيى القلوب والمطر؛ ماء السماء الذى يحيى الأرض، . . ولذلك انتقلت سورة الفرقان من الحديث عن ماء السماء الطهور إلى الحديث عن القرآن لتأكيد هذا

---

(١) تحتاج تلك النشأة الأولى إلى بسط وتفصيل وسنعود إليها فيما بعد بإذن الله.

التماثل ﴿ وَلَوْ شِئْنَا لَبَعَثْنَا فِي كُلِّ قَرْيَةٍ نَّذِيرًا (٥١) فَلَا تُطِعِ الْكَافِرِينَ وَجَاهِدْهُم بِهِ جِهَادًا كَبِيرًا ﴾(١).

إن رسالة القرآن الجوهرية هى الإيمان بالبعث بعد الموت، . . وهذه هى رسالة الماء النازل من السماء ولذلك وصف الله - سبحانه وتعالى - نفسه قائلاً:

﴿ وَالَّذِي نَزَّلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً بِقَدَرٍ فَأَنشَرْنَا بِهِ بَلْدَةً مَّيْتًا كَذَلِكَ تُخْرَجُونَ ﴾(٢).

﴿ بِقَدَرٍ ﴾: بكمية مضبوطة محسوبة محددة المكان والزمان لتضمن حفظ الحياة على الأرض. وهذا القدر يُعَيِّنه ما يسمى «بحد تشبع الهواء ببخار الماء».

ويعنى أعلى تركيز (ضغط) لبخار الماء يمكن أن يستوعبه الهواء، . . وبعده لابد أن يحدث تكثف للبخار ليعود الماء إلى صورته السائلة أو المتجمدة، . . فكمية ماء المطر محكومة بهذا الحد.

﴿ كَذَلِكَ تُخْرَجُونَ ﴾: على نحو يشبه احياء البلدة الميتة المضروبة مثلاً فى الآية سوف يتم إحياؤكم وإخراجكم من الأرض مرة أخرى عند البعث والنشور. وتتعدد مستويات وأوجه فهم الآيات ولكن

(١) سورة الفرقان الآيتان ٥١، ٥٢ .
(٢) سورة الزخرف الآية ١١ .

تبقى آية إنزال المطر شاهد صدق على ألوهية من نزّل هذا القرآن وبرهان ساطع على الحياة بعد الموت.

﴿ وَاللَّهُ أَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَحْيَا بِهِ الأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَةً لِقَوْمٍ يَسْمَعُونَ ﴾[1].

ولتأكيد أن إنزال المطر عمل آلهى شرع الله لعباده المؤمنين صلاة «الإستسقاء» يستمطرون بها السماء عند حدوث الجدب والجفاف والعطش، ليعلموا ويعاينوا من خلال الصلاة أن إنزال المطر بيد الله وحده. فى هذه الصلاة يقول المؤمنون وهم يتضرعون كما قال النبى ﷺ «اللهم اسقنا الغيث ولا تجعلنا من القانطين».

«اللهم إن بالعباد والبلاد من الجهد والجوع والضنك مالا نشكو إلاّ إليك».

«اللهم أنبت لنا الزرع، وأدر لنا الضرع، وأنزل علينا من بركات السماء، وأنبت لنا من بركات الأرض واكشف عنا من البلاء مالا يكشفه غيرك».

اللهم أنا نستغفرك إنك كنت غفارًا فارسل السماء علينا مدرارًا».

---

(١) سورة النحل ـ الآية ٦٥ .

مستحضرين ما قاله نوح - عليه الصلاة والسلام - عندما امتحن الله قومه بالجدب فنصحهم بالاستغفار والصلاة لرب الأرض والسماء ليتنزل عليهم الماء ﴿ فَقُلْتُ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ إِنَّهُ كَانَ غَفَّارًا (١٠) يُرْسِلِ السَّمَاءَ عَلَيْكُم مِّدْرَارًا (١١) وَيُمْدِدْكُم بِأَمْوَالٍ وَبَنِينَ وَيَجْعَل لَّكُمْ جَنَّاتٍ وَيَجْعَل لَّكُمْ أَنْهَارًا ﴾[1].

---

(١) سورة نوح الآيات ١٠-١٢.

٢

مـــاء السمـــــاء

تستحق الأرض أن تُسمى الكوكب المائى أو الكوكب الأزرق، لأنها تنفرد من بين جميع مكونات هذا الكون الهائل - بكل ما فيه من مجرات ونجوم وتوابع من الكواكب والأقمار تستعصى على الإحصاء - بهذا القدر الكبير من الماء؛ سائل الحياة أو حامل الروح للكائنات وتغطى مياه المحيطات والبحار ما يزيد على ٧٠٪ من مساحة سطح الكرة الأرضية، أى ما يساوى ثلاثمائة وواحد وستين مليون كيلو متر مربع (٣٦١,٠٠٠,٠٠٠ كم²) فإذا أضفنا إليها الماء المتجمد فى القطبين الشمالى والجنوبى ارتفعت النسبة إلى ٧٤٪ من مساحة الأرض فإذا أضفنا إليها الأنهار والبحيرات والمستنقعات

ناهزت نسبة مساحة الماء ٧٥٪ من المساحة الكلية لسطح الكوكب الأرضى.

من كل تلك المساحات المائية الشاسعة يصعد الماء إلى السماء طاهرًا نقيًا فى صورة بخار الماء بفعل أشعة الشمس؛ السراج الوهاج حيث تستعمل ثلث طاقتها فى تصعيد هذا السائل العجيب من المحيطات والبحار والأنهار والبحيرات والمستنقعات إلى الغلاف الجوى، ولنا أن نتصور مقدار ما تفقده الأرض من مائها بالبخر إذا انتبهنا إلى أن الحسابات العلمية تقدر أن البحر الأبيض المتوسط على سبيل المثال يتبخر من سطحه ما يصل إلى مائة ألف طن من الماء كل ثانية واحدة، وأن المحيطات والبحار تفقد من مائها بالبخر ما يساوى (٩٠ ـ ٩٥) سنتيمتر من سُمكها (عمق الماء فيها) أى ما يقترب من ارتفاع متر واحد كل عام، ولما كان متوسط عمق المحيطات هو أربعة آلاف متر، فمعنى هذه الحقيقة ـ بكل بساطة ـ هو أن الأرض تفقد كل ماءها بفعل حرارة الشمس، فيما لا يزيد كثيرًا عن أربعة آلاف عام فقط، وتتحول بعدها المحيطات والبحار إلى حفر جافة هائلة، وتفقد الأرض كل صور الحياة وتعود إلى الموت!!

فمن الذى حافظ على حياة الأرض طوال مئات الملايين من السنين وأنقذها من ذلك المصير البائس؟!

إنها «السماء ذات الرجع» التى تكفلت بإرجاع الماء إلى الأرض فى صورة المطر، ولذلك أقسم الله بها تأكيدًا على رجوع الإنسان للقيام بين يدى خالقه عائدًا للحياة بعد الموت قائلاً:

﴿ وَالسَّمَاءِ ذَاتِ الرَّجْعِ ﴾[1] وهذه السماء المذكورة فى القسم الإلهى؛ هى طبقة الغلاف الجوى الدنيا المسماة «التربو سفير» Tro-pospher التى ترتفع فوق سطح الأرض إلى حوالى ثمانية عشرة كيلو متر عند خط الإستواء، ويقل ارتفاعها حتى تبلغ أدنى مستوى لها فوق القطبين. إذ لا يزيد ارتفاعها هناك عن ثمانية كيلو متر فقط، فى هذه السماء القريبة ذات الرجع يتكون السحاب الذى يعد خزائن للماء الصاعد من الأرض، فكيف ينشأ السحاب وكيف يحتفظ بالماء وكيف يرجعه إلى الأرض مطرًا؛ ماء سائلاً أو متجمدًا بردًا ليحفظ فيها سر الحياة؟!!

يتكون الهواء (الغلاف الجوى) الذى يحيط بالكرة الأرضية فى عصرنا هذا من خليط من الغازات (نيتروجين بنسبة ٧٨٪، واكسجين بنسبة ٢١٪ تقريبًا. مع مجموعة من الغازات الأخرى تشكل ١٪) ولا يستطيع هذا الوسط الغازى أن يستوعب إلاّ قدرًا محدودًا محسوبًا

---

(١) سورة الطارق ـ الآية ١١ .

بهذه السماء ذات الرجع المشهودة يذكرنا الله بتلك السماء الأخرى التى صعدنا إليها فى النشأة الأولى بنهاية اليوم الرابع من أيام الخلق، وقامت أرواحنا (أنفسنا الحية خارج نطاق هذا الجسد) فيها بين يدى الله، قيام السحاب فى السماء ولذلك يسمى قيامنا بين يدى الله فى النشأة الأخرى (بعد البعث من القبور) «رجوعًا» أى عودة للمقام الذى كنا فيه قبل أن ننزل إلى الابتلاء بالولادة من الأرحام فى هذه الحياة الدنيا لابسين هذا الجسد. وإلا فما معنى قوله (سبحانه وتعالى) ﴿إلى الله مرجعكم جميعًا﴾؟! أليس الرجوع هو العودة إلى ما كنا فيه من قبل؟!!

بدقة متناهية من بخار الماء الصاعد من الأسطح المائية السائلة، فإن زادت كمية بخار الماء أعنى الماء فى هيئته الغازية غير المرئية عن هذا الحد، كان حتمًا مقضيا- أن تتحول الزيادة إلى الصورة السائلة (قطرات الماء) أو الصورة الصلبة المتجمدة (بللورات الثلج وحبات البَرد)، وهذا المقـدار الذى يستطيـع الهـواء أن يحملـه، أو يتحمله من بخار الماء هو ما يعـرف «بحـد التشبع» يعنى أعلى تركيز أو ضغط ممكن مـن الماء فـى صورتـه الغازية، يستطيع الهواء أن يستوعبه وكل زيادة بعد هذا الحد لابد أن تتحول إلى صورة أخرى، أى ترجع إلى الهيئة التى كان عليها الماء فى الأرض سائلاً أو متجمداً.

وتختلف قدرة الهواء على استيعاب بخار الماء (الصورة الغازية غير المرئية للماء) باختلاف درجة الحرارة، . . ومن ثم فإن «حد التشبع» يتناسب طرديًا مع درجة الحرارة، فكلما ارتفعت درجة حرارة الهواء (الغلاف الجوى) زادت قدرته على استيعاب الماء فى صورته الغازية، ومع انخفاض درجة الحرارة، تقل تلك القدرة، ويتجه بخار الماء إلى التكثف متحولاً إلى ماء سائل أو ماء متجمد (ثلج أو بَرد) حسب درجة الحرارة السائدة فى الهواء، فإن ارتفعت درجة الحرارة فوق مستوى التجمد، أى فوق درجة الصفر المستوى، صار البخار ماء سائلاً على هيئة نقط أو قطرات، وإن كانت درجة الحرارة تحت الصفر المئوى، تحول بخار الماء مباشرة إلى بللورات ثلج تتجمع مع بعضها، أو تتكاثف لتكون حبات البَردَ.

ومن أعاجيب الماء التى ينفرد بها من بين كافة مخلوقات الله أنه يوجد فى الهيئات (الحالات) الثلاثة للمادة؛ الغاز (الدخان)، والسائل، والصلب، وأن كثافة الهيئة (الحالة) الصلبة أقل من كثافة الهيئة السائلة، . . ومن ثم فإن الثلج أو البَردَ يطفوا فوق الماء السائل، كما أن الماء يمكن أن يحتفظ بصورته السائلة عند درجات حرارة بالغة الانخفاض تحت مستوى التجمد، قد تصل إلى أربعين درجة تحت الصفر، أو تزيد وذلك فى أعالى طبقة التربو سفير التى يتكون فيها السحاب، ويسمى حينذاك بالماء فوق المبرد؛ أى المحتفظ بالصورة السائلة فى درجة حرارة أقل من درجة الصفر المئوى التى يحدث عندها التجمد، . . وهذه الخصائص المدهشة كلها من آيات الله التى أودعها فى الماء.

وعند صعود الهواء الساخن بتأثير أشعة الشمس حاملاً بخار الماء من سطح الأرض، فإنه يتعرض إلى تبريد شديد نتيجة الانخفاض المتزايد فى درجة الحرارة كلما ارتفعنا فى طبقة التربو سفير بمعدل ست درجات مئوية كل ألف متر، . . . ونتيجة أيضاً للتمدد الفجائى الكبير فى حجم الهواء، كلما صعدنا إلى أعلى للتناقص المتزايد فى الضغط الجوى (كثافة الهواء) حيث أن كل طبقة من الهواء، تحمل ما فوقها أى تتعرض للضغط عليها من الطبقات التى تعلوها، . . . ومن ثم فإن أعلى مستوى للضغط الجوى يكون فى طبقة الهواء الملاصقة

لسطح الأرض، وكلما ارتفعنا انخفض الضغط (قلت الكثافة) حتى نهاية الغلاف الجوى، على بعد يناهز الألف كيلو متر فوق سطح الأرض، . . . حيث ينعدم الضغط الجوى، أو تبلغ كثافة الهواء صفرًا، ومع انخفاض الضغط يزداد الحجم؛ أى يحدث التمدد طبقًا لقانون الانتشار، وتنخفض الحرارة أى يحدث ما يسمى بالتبريد الذاتى، وهو من الخصائص الطبيعية (الفيزيائية) للغازات. إذن مع الارتفاع فوق سطح الأرض داخل طبقة التربو سفير تنخفض درجة حرارة الهواء، . . . ومن ثم تقل قدرته على استيعاب بخار الماء؛ يعنى يقل حد التشبع، وتتكثف مقادير بخار الماء التى تزيد عن هذا الحد، وتتحول إلى نقط صغيرة من الماء السائل، أو بللورات دقيقة جدًا من الثلج (الماء المتجمد) مكونة ما يسمى «بالسحاب».

إذن «السحابة» ليست إلاّ مقدارًا من بخار الماء، تكثف بسبب التبريد فى أعالى طبقة الغلاف الجوى المسماة بالتربو سفير، نتيجة انخفاض درجة الحرارة والضغط الجوى هناك، فالسحاب هو ضباب (شبورة) السماء، كما أن الضباب هو سحاب الأرض، . . . فعندما يزيد تركيز بخار الماء فى طبقة الهواء الملاصقة لسطح الأرض على حد التشبع، تتحول الكميات الزائدة من بخار الماء فوق هذا الحد إلى قطرات دقيقة جدًا من الماء، تصير معلقة فى الهواء لأنها خفيفة الوزن كذرات الغبار وتصنع ما نسميه «الضباب» وعندما يحدث نفس الشىء

فى السماء؛ أعنى فى أعلى الطبقة الدنيا من الغلاف الجوى نسميه «السحاب» الذى لا يعدو أن يكون بخار ماء تكثف إلى نقط بالغة الصغر من الماء السائل، وحبيبات أو بللورات بالغة الدقة من الثلج،... وقد نتج هذا التكثف عن التبريد الذى تعرضت له تيارات الهواء الصاعدة من سطح الأرض إلى الطبقة الدنيا من الغلاف الجوى (التربو سفير) بقوة أشعة الشمس، التى تخلق فروقًا فى الضغط الجوى، يدفع الهواء إلى الحركة. وتيارات الهواء المتحرك هى ما نسميه «الرياح» التى لا تعنى شيئًا سوى حركة الهواء و«الرياح» هى التى تُهَيِّجُ «بخار الماء» المختفى فى الهواء، والمحتجب عن الأبصار وتدفعه للصعود إلى أعلى، وتخرجه إلى طور الظهور يعنى فى كلمة واحدة «تثيره» إلى حيث يتكثف على هيئة قطرات بالغة الصغر من الماء أو بللورات دقيقة جدًا من الثلج فيظهر السحاب فى السماء، ولا نتجاوز الحقيقة، أو نتخلى عن الدقة العلمية أو نقتحم لجة الشعر، إذا وصفنا السحاب بأنه ماءُ يسبح فى بحر من الهواء، أو شبهناه بطير من الماء يحلق فى السماء بأجنحة من الهواء!!!. أنظر إلى قوله (سبحانه وتعالى): ﴿ وَاللَّهُ الَّذِي أَرْسَلَ الرِّيَاحَ فَتُثِيرُ سَحَابًا ﴾(١).

﴿ أَرْسَلَ الرِّيَاحَ ﴾ أطلق تيارات الهواء الصاعدة؛ أى بعث الحركة

(١) سورة فاطر ـ الآية ٩ .

فى الهواء (الغلاف الجوى).

﴿ فَتُثِيرُ سَحَابًا ﴾ فتُظهرُ سحابًا، وتجعله يسطع على صفحة السماء بعد اختفاء.

تعبيره (سبحانه وتعالى) عن الإرسال بصيغة الماضى «أرسل» ثم اختياره للزمن الحاضر للتعبير عن إثارة الرياح للسحاب فيه دلالة على أن إرسال الرياح، لابد أن يسبق الإثارة أى إظهار السحاب، لأن الماضى يسبق الحاضر، وفيه دلالة على أن هذا قانون إلـهى لا يتخلف فلابد أن «تُرْسَلَ» الرياح «قبل» أن يظهر السحاب، ويتهيأ لإنزال الماء، ولا سبيل إلى تغيير هذا الترتيب.

واختار ـ سبحانه وتعالى ـ لفظة ﴿ تُثِيرُ ﴾ للتعبير عن إنشاء السحاب وإظهاره دون غيرها من الألفاظ التى تدل على الإظهار والسطوع، لأن معانى «الإثارة» تدور حول التهييج والوثوب والارتفاع،(١) وهو العمل الذى تقوم به الرياح فى بخار الماء «الذائب» فى مخلوط الهواء، ولكن لماذا لا يسقط الماء أو البرد على هيئة المطر بمجرد تكثفه فى السحاب؟ أو بكلمات أخرى لماذا لا تجود كل السحب بالمطر بمجرد ظهورها بتكثف بخار الماء...؟!! لماذا تبقى الكثير من السحب معلقة فى الهواء، أو السماء دون أن ينزل منها الماء؟!!.

---

(١) راجع مادة «ثورة» فى لسان العرب، لابن منظور، ص ٥٢١-٥٢٣.

والإجابة لأن تلك النقط والبلورات بالغة الصغر، خفيفة الوزن جدًا، بحيث تستطيع «الرياح» الصاعدة أن تحملها، وتبقيها معلقة فى الجو (الهواء) مقاومة وزنها؛ أى قوة جذب الأرض لها، فهى تطفو على أمواج الهواء.

ولكى يحدث التكاثف، لابد من وجود جسيمات صلبة صغيرة جدًا؛ تنتشر فى الهواء، وتحملها الرياح (تيارات الهواء الصاعدة) لكى تكون بمثابة مراكز تتجمع حولها جزئيات بخار الماء عند حدوث التكثف، وهذه الجسيمات هى ما يطلق عليها «نويات التكاثف» وتعمل هذه الجسيمات على تماسك، أو تجميع جزئيات بخار الماء العالقة فى الهواء مع بعضها لتكوين نقط الماء، أو بللورات الثلج، . . . وقد أشار الله ـ سبحانة وتعالى ـ إلى هذه الحقيقة بقوله ﴿ وَأَرْسَلْنَا الرِّيَاحَ لَوَاقِحَ ﴾[1] فالرياح المرسلة تُلَقِّح (تحقن) السحاب (بخار الماء المتكثف) بنويات التكاثف التى تجمع جزئيات بخار الماء حولها، وتتكون نويات التكاثف من مساحيق دقيقة جدًا، مثل كلوريد الصوديوم (ملح الطعام) المتطاير من أسطح البحار والمحيطات، وثانى أكسيد الكربون، وثانى أكسيد الكبريت الناتج عن الاحتراق، ونواتج احتراق الشهب، والنيازك المتطايرة فى الجو، وكثير من الذرات المشحونة (الأيونات). وبحدوث التكثف، تنطلق الطاقة

---

(١) سورة الحجر ـ الآية ٢٢ .

الحرارية الكامنة فى بخار الماء، تلك الطاقة التى اختزنت فيه عند تبخير الأسطح المائية، . . . ومن ثم تتولد داخل السحاب طاقة حرارية، تقوم بتسخين الهواء وتُنْتِجُ (تُولِّد) تيارات حمل حرارية، فيندفع الهواء الساخن إلى أعلى، ويحل محله الهواء البارد؛ يعنى تصعد تيارات هوائية (رياح) من قواعد السحب، إلى قممها؛ أى يحدث تهييج وتقليب للسحب بالضبط كما «تثير» الدواب الأرض، فيندفع الغبار إلى أعلى، أو كما يقلب الإنسان التربة ليضع «بذور» الزرع، وعلى هذا النحو «تثير» الرياح (تيارات الهواء) السحاب المتكون وتضع فيه «بذور» المطر، أى نويات التكاثف. فإذا أراد الله إنزال المطر، فإنه يرسل الرياح لتهيئ السحاب ليجود بما فيه من ماء. ﴿ **اللَّهُ الَّذِي يُرْسِلُ الرِّيَاحَ فَتُثِيرُ سَحَابًا** ﴾(١) وثمرة هذه الإثارة أن ينتشر السحاب على صفحة السماء متخذاً الهيئة، أو متشكلاً فى الصورة التى تؤهله لإنزال المطر، . . . وقد وصف الله هذا بقوله ﴿ **فَيَبْسُطُهُ فِي السَّمَاءِ كَيْفَ يَشَاءُ** ﴾(٢) فتتجمع نقط الماء بالغة الصغر، وتلتحم مع بعضها لتكوين قطرات أكبر «وأثقل»، وغنى عن البيان أن المطر لن يهطل قبل أن تصل أحجام وأوزان قطرات الماء (أو حبات البَرَد) إلى الحد الذى يُغَلِّبُ قوة جذب الأرض لها على قدرة حمل

---

(١) سورة الروم ـ الآية ٤٨ .

(٢) سورة الروم ـ الآية ٤٨ .

اختيار الزمن الحاضر هنا (يرسل، فتثير، فيبسطه) إشارة إلى استمرار عمل القانون الإلـهى فى الكون المشهود.

الهواء لها. إذن فلا بد أن تستمر «الإثارة» بواسطة الرياح؛ أى التقليب والتقليح حتى يثقل السحاب، ويصبح الهواء غير قادر على حمله، وحينئذ يسوقه الله بواسطة الرياح إلى الموضع من الأرض الذى يريد الله إحياءه. وصف ذلك بقوله - سبحانه وتعالى -: ﴿ وَهُوَ الَّذِي يُرْسِلُ الرِّيَاحَ بُشْرًا بَيْنَ يَدَيْ رَحْمَتِهِ حَتَّىٰ إِذَا أَقَلَّتْ سَحَابًا ثِقَالاً سُقْنَاهُ لِبَلَدٍ مَّيِّتٍ ﴾[1].

﴿ بُشْرًا بَيْنَ يَدَيْ رَحْمَتِهِ ﴾ تبشيرًا يسبق إحياءه.

فالرياح تنبئ وتمهد للحياة (الرحمة) القادمة فى الماء الذى يوشك أن ينزل.

﴿ سُقْنَاهُ ﴾[2] حركناه من ورائه؛ أى دفعناه من الخلف لأن الرياح التى تدفع السحاب لا تُرى، فإنها مختبئة وراء ظهر السحاب التى تدفعه إن صح التعبير، ولا يُرى إلا السحاب وهو يتحرك، بينما القوة التى تسوقه محتجبة عن الأبصار.

---

(١) سورة الأعراف - الآية ٥٧ .

(٢) انتقال السياق المفاجئ من الحديث بضمير المفرد الغائب (هو الذى يرسل، بين يدى رحمته) إلى ضمير الجمع الحاضر (سقناه) لافت للنظر، وله دلالة على حضور «روح الله» الذى به تُجمع كل الأشياء فى شهادة الله، وفيه إشارة إلى أن النبى الأمى المخاطب بهذا القرآن هو «روح الله»، إذ أدخله السياق فى إحداث السَّوق. فتأمل كيف حرص القرآن أشد الحرص فى كل الآيات التى تناولت الإحياء على الانتقال المفاجئ فى خضم السياق من المفرد الغائب إلى الجمع

إذن تحريك السحاب إلى البلد الميت لإحيائه لا يقع قبل أن يصبح «مثقلاً» بقطرات الماء الكبيرة فالسَّوْقُ يتبع اكتمال الإثارة، ولذلك ربط بين الإثارة والسوق بحرف الفاء الذى يفيد التعاقب مع السرعة ﴿ وَاللَّهُ الَّذِي أَرْسَلَ الرِّيَاحَ فَتُثِيرُ سَحَابًا فَسُقْنَاهُ إِلَىٰ بَلَدٍ مَّيِّتٍ ﴾[1] وعندما يصبح السحاب «ثقالاً» فإنه يفقد تماسكه، ويتهاوى بناؤه فيتمزق إلى قطع، ويهطل المطر من بين الأجزاء المفككة المتناثرة ﴿ وَيَجْعَلُهُ كِسَفًا فَتَرَى الْوَدْقَ يَخْرُجُ مِنْ خِلَالِهِ ﴾[2].

﴿ كِسَفًا ﴾: قِطعًا أى أجزاءً، جمع كِسْفَة بمعنى قِطعة وعندما يخبرنا الله أن السحاب يتمزق عند نهاية أمره، أو بلوغ غايته إلى قطع ممزقة، فقد أشار بهذا إلى أنه قد نشأ فى البداية من تجميع وضم الأجزاء (الكسف) مع بعضها وتأليفها.

﴿ الْوَدْقَ ﴾ المطر... واختار الله (سبحانه وتعالى) لفظة «الودْق» للتعبير عن ماء السماء النازل من السحاب، لأن معانى مادة «ودْق»[3] تدور حول القرب (الدنو) والتدلى والاتساع وشدة الرغبة فى الجماع، للدلالة على أن المطر؛ ماء السماء النازل إنما يتكون من قطرات من الماء، تكونت من اقتراب واجتماع وضم عدد كبير من

(١) سورة فاطر ـ الآية ٩ .

(٢) سورة الروم ـ الآية ٤٨ .

(٣) راجع مادة «ودق» فى لسان العرب لابن منظور، ص ٤٨٠٠ - ٤٨٠١، طبعة دار المعارف ـ القاهرة.

النقط المائية بالغة الصغر اندمجت مع بعضها حول نويات التكاثف، التى حملتها الرياح إلى السحاب، تجذبها رابطة تشبه انجذاب الأنثى للذكر أو السالب إلى الموجب فى الكهرباء، ... ولذلك سمى «قذف» الرياح لنويات التكاثف فى السحاب تلقيحًا، مذكرًا بنكاح الأنثى والذكر ومنبهًا إلى طبيعة الجذب الكهربى بين الجسيمات السالبة والموجبة، الذى يؤدى إلى تجميع نقط الماء، ونموها إلى قطرات تكوّن الودْق يقول الخالق - جل فى علاه - ﴿ وَأَرْسَلْنَا الرِّيَاحَ لَوَاقِحَ فَأَنزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً ﴾[1] فربط بين التلقيح المذكور وإنزال الماء بحرف «الفاء»، الدال على التعاقب والسرعة والسبب.

ولا شك فى أن قوله (تعالى) ﴿ فترى ﴾ قد نبه القلوب المتدبرة، والعقول (الأفئدة) المتحفزة، لالتقاط الحقيقة إلى حضور النبى الأمى المخاطب بهذا القرآن، فى ذلك المقام الذى ينزل فيه ماء السماء، وإلاّ فما مغزى هذه الالتفافة المدهشة إلى النبى ﷺ بقوله ﴿ فترى الودق يخرج من خلاله ﴾ أمَا كان يكفى أن يقول فيخرج الودْق من خلاله»؟!!!.. فانظر وتأمل!!

ها نحن قد وصلنا مع «السحاب الثقال» المساق إلى البلد الميت الذى يراد إحياؤه، وصرنا فوقه فماذا سيحدث يا أيها النبى؟! لقد صار نزول الماء حُكمًا إلـهيًا، وحتمًا مقضيًا، أن تجيب رحمة الله به نداء العطش «فأنزلنا به الماء» فمَسَّ «الروح» التراب.

﴿ فَأَحْيَيْنَا بِهِ الأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا ﴾[1].

﴿ فَأَخْرَجْنَا بِهِ مِن كُلِّ الثَّمَرَاتِ ﴾[2].

فما هى الغاية من ذكر هذه الآية؟!... أن تؤمنوا أنه ﴿ كَذَلِكَ النُّشُورُ ﴾[3].

فما هو النشور؟!... إنه إخراج الموتى من القبور.

﴿ كَذَلِكَ نُخْرِجُ الْمَوْتَىٰ ﴾[4].

فما هى ثمرة الإيمان بالبعث بعد الموت؟!

الثمرة هى تذكر النشأة الأولى، التى نبت فيها الإنسان من الأرض نباتًا، وصعد فيها إلى السماء التى جعلها الله له بناءً؛ بيتًا أوت إليه قديمًا الأنفس الحية حتى جاء موعد الإبتلاء، فهبطنا مع «آدم» (عليه الصلاة والسلام) وتوالى ظهورنا بالولادة من الأرحام، وذلك التذكر يجعل من النشأة الآخرة (الثانية) بالبعث من القبور «يقينًا» لا يعوزه دليل، وذالكم ما يحبه ويرضاه لكم ربكم فقال ﴿ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴾[5].

---

(1) سورة فاطر ـ الآية ٩ .

(2) سورة الأعراف ـ الآية ٥٧ .

(3) سورة فاطر ـ الآية ٩ .

(4) سورة الأعراف ـ الآية ٥٧ .

(5) سورة الأعراف ـ الآية ٥٧ .

وصف الله حال أهل البلد الميت، الذين أصابهم القنوط، إذ أشرفوا على الهلاك قبل مجىء الودق، واستبدت بهم الحيرة، لا يعلمون مصيرهم، ولا يقدرون على شىء فقال ﴿ فَإِذَا أَصَابَ بِهِ مَن يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ إِذَا هُمْ يَسْتَبْشِرُونَ (٤٨) وَإِن كَانُوا مِن قَبْلِ أَن يُنَزَّلَ عَلَيْهِم مِّن قَبْلِهِ لَمُبْلِسِينَ ﴾[١].

﴿ لَمُبْلِسِينَ ﴾: لمتحيرين أشد الحيرة قد التبست عليهم الأمور أقصى التباس، فغابت عنهم حقائق الأشياء، وبدت لهم ظواهرها بوجه غير الذى اعتادوا رؤيته، وهذه هى الحال التى يصنعها «إبليس» فى صدور الناس، . . . ولذلك أُعْطى اسمه لأنه قادر - بإذن الله - على الإبلاس أى إخفاء الحقائق، وإلباس الباطل (الوهم) ثوب الحق.

قوله (سبحانه وتعالى) «من قبله» يعنى من أمامِه، أى من بين يديه، لأن من معانى «قبل» أمام، كما أن من معانى «بعد» خلف، أو وراء والضمير يعود إلى «روح الله» القائم بين يدى الله، والمحتجب وراء الودق الذى يخرج من خلال السحب، وليس المقصود من قبل نزول المطر، لأن هذا المعنى قد صرّح به من قبل إذ قيل فى بدء الآية ﴿ وَإِن كَانُوا مِن قَبْلِ أَن يُنَزَّلَ عَلَيْهِم ﴾ ويتنزه القرآن الحكيم عن أن يكرر المعنى فى نفس الآية فيقول ﴿ مِن قَبْلِهِ ﴾ مرة

(١) سورة الروم - الآية ٤٨-٤٩ .

أخرى وبهذا الفهم يصبح معنى الآية هو: «وإن كانوا من قبل أن ينزل عليهم الودق من بين يديه، أى من أمام روح الله القائم وراء كل شىء، والحامل والجامع لكل شىء لمتحيرين أشد الحيرة، قد بلغ بهم الالتباس أقصاه». ولذلك قال له مباشرة، لافتًا النظر إلى «روح الله» سر الحياة ﴿ فَانظُرْ إِلَىٰ آثَارِ رَحْمَتِ اللَّهِ كَيْفَ يُحْيِي الأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا إِنَّ ذَلِكَ لَمُحْيِي الْمَوْتَىٰ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴾(١).

ويمن الله علينا معلنًا مجد ألوهيته قائلاً: ﴿ فَأَسْقَيْنَاكُمُوهُ وَمَا أَنتُمْ لَهُ بِخَازِنِينَ ﴾(٢) فبين بالسياق: أن السحاب هو الخزائن السماوية لماء الأرض الذى يتفضل الله علينا بتمكيننا من شربه عذبًا فراتًا، فبالسحاب يحفظ الله لنا ماء الأرض طاهرًا نقيًا صالحًا للشرب، ولولا السحاب لضاع ماء الأرض، بخرًا بفعل حرارة الشمس فى الفضاء الكونى الشاسع الرهيب، ولهلكنا وهلكت معنا كل صور الحياة على الأرض، . . . وبهذه الدورة المستمرة للماء بين الأرض والسماء، تتحرك الكائنات ويحفظ الله الحياة على الأرض إلى أن تأتى «الساعة» التى يسترد الله فيها كل شىء مرجعًا الجميع إلى الغيب ﴿وَإِنَّا لَنَحْنُ نُحْيِي وَنُمِيتُ وَنَحْنُ الْوَارِثُونَ﴾(٣).

---

(١) سورة الروم ـ الآية ٥٠ .

(٢) سورة الحجر ـ الآية ٢٢ .

(٣) سورة الحجر - الآية ٢٣ . . . وانظر إلى «نحن» وتذكر!!

وحفظ الحياة على الأرض، يكون بزواج الذكر والأنثى، وعندما يصف الله فعل الرياح فى السحاب بقوله ﴿وَأَرْسَلْنَا الرِّيَاحَ لَوَاقِحَ﴾[1] يعنى لواقح للسحب، تقوم بتلقيحها بنويات التكاثف،... فقد جعل الرياح فى مقام الرجل الذى «يقذف» بالمنى فى فرج المرأة، وجعل السحاب فى مقام المرأة التى تتلقى المنى فى رحمها، وجعل نويات التكاثف (بذور المطر) فى مقام المنى الذى يحتوى على بذور الإنسان،... ولذلك وصف السُّحب فى سورة النبأ بالمُعْصِرات حيث قال: ﴿وَأَنزَلْنَا مِنَ الْمُعْصِرَاتِ مَاءً ثَجَّاجًا﴾[2] والمُعْصِرات هن النساء اللاتى بلغن المحيض، وصرن قادرات على الإنجاب فالَمُعْصِر[3] هى المرأة الناضجة، أو الجارية التى بلغت المحيض، وقد جمعها الله فى سورة «النبأ» على «معصرات» (جمع المؤنث السالم) وليس معاصر أو معاصير كما اعتاد العرب، ليؤكد معنى التلقيح فى إرسال الرياح بلفت النظر إلى «أنوثة» السحب فى مقابل ذكورة «الرياح».

وإذا كانت المُعْصِر قد اتخذت هذا الإسم لأنها تَعْصِرُ (تحبس) الدم أو الجنين فى رحمها، ولا يتم خروج أى منهما إلاّ بعصر الرحم، أى انقباضه لاستخراج ما فيه فإن السحابة؛ مُعْصِر السماء تحبس الماء

---

(١) سورة الحجر ـ الآية ٢٢ .

(٢) سورة النبأ ـ الآية ١٤ .

(٣) راجع معنى «مُعْصِر» فى مادة «عصر» بكتاب لسان العرب، ص ٢٩٦٨-٢٩٧١

المتكون حول نويات التكاثف التى قذفتها الرياح فى رحمها ولا تلده إلا بأن تُعتَصَرَ بيد الرياح، التى تضغط عليها لتضع مولودها؛ الماء ابن الروح، . . . فالرياح هى يد الروح لإخراج الماء من السحب (المُعْصِرات)، والروح هو يد الله لإخراج مخلوقاته من الغيب.

﴿ مَاءً ثَجَّاجًا ﴾: ماءً سائلاً مُصوبًا إلى الأرض ينصب انصبابا ﴿ لِنُخْرِجَ بِهِ حَبًّا وَنَبَاتًا (١٥) وَجَنَّاتٍ أَلْفَافًا ﴾(١).

«الحَبُّ»: كل ما يصنع منه الخبز والبقول.

«النبات» كل ما سوى ذلك مما يؤكل، مثل: الخضروات، والفواكه، ومالا يؤكل، مثل: نباتات الزينة والعطور والعلاج.

﴿ وَجَنَّاتٍ أَلْفَافًا ﴾: البساتين ذات الأشجار الكثيرة الكثيفة المجتمعة، الملتفة حول بعضها يعنى فى كلمة واحدة «الغابات». فالحَبُّ والنبات هما ما يقدر الإنسان على استنباته، أما الجنات الألفاف (الغابات) فلم يزرعها إلاّ الله.

ويخاطب الله وجدان الإنسان، لعل قلبه يرق ويخشع، لما نزل من الحق فيتخلى عن تكبره وعناده فيقول له ﴿وَمِنْ آيَاتِهِ أَنَّكَ تَرَى الْأَرْضَ خَاشِعَةً فَإِذَا أَنزَلْنَا عَلَيْهَا الْمَاءَ اهْتَزَّتْ وَرَبَتْ إِنَّ الَّذِي أَحْيَاهَا لَمُحْيِي الْمَوْتَىٰ إِنَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴾(٢).

---

(١) سورة النبأ ـ الآيتين ١٥-١٦ .

(٢) سورة فصلت ـ الآية ٣٩ .

إن الأرض تهتز لنزول الماء عليها، كأنها ترقص فرحًا لحضور الروح؛ سر الحياة متسربلاً بالماء، وإنها من فرط شهوتها لتمتص الماء امتصاصًا، فيمتلئ جسمها (ربت) وينمو ابتهاجًا بالحياة.

ويقول له ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ أَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَتُصْبِحُ الأَرْضُ مُخْضَرَّةً إِنَّ اللَّهَ لَطِيفٌ خَبِيرٌ﴾(١) يدعوه إلى ملاحظة تحول حال الأرض قبل وبعد نزول المطر، كانت صفراء جدباء، أو ترابية جافة، ثم صارت ﴿مخضرة﴾ تذكر القلب بجنة الرب.

﴿لَطِيفٌ﴾: يخفى على إدراك الحواس من شدة قربه، فهو أقرب إلى المخلوق من حواس جسمه.

﴿خَبِيرٌ﴾: يسبق علمه ـ سبحانه وتعالى ـ علم خلقه.

فكيف يمكن مقارنته، فضلاً عن مساواته ـ جل فى علاه ـ بغيره لذلك يسائلنا ربنا كيف تقبل عقولنا، أو ترضى نفوسنا، بتوهم شريك لله أوند أو ضد ﴿أَمَّن يَهْدِيكُمْ فِي ظُلُمَاتِ الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَمَن يُرْسِلُ الرِّيَاحَ بُشْرًا بَيْنَ يَدَيْ رَحْمَتِهِ أَإِلَهٌ مَّعَ اللَّهِ تَعَالَى اللَّهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾(٢).

انظر كيف نزه نبيه الأمى ﷺ المُخَاطب بهذا القرآن فأخرجه من

---

(١) سورة الحج ـ الآية ٦٣ .

(٢) سورة النمل ـ الآية ٦٣ .

جملة المخاطبين الذين يُحتمل وقوعهم فى الشرك بالله، فحول السياق من صيغة الخطاب إلى صيغة الغائب، فقال ﴿ تَعَالَى اللَّهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴾ ولم يقل «تعالى الله عما تشركون» رغم أن صدر الآية بدأ بالخطاب «أمن يهديكم»!!!

لكن الإنسان كثير الجدال، شديد العناد، ولا بد من إظهار القوة والتهديد باستعمالها ضده، حتى يتخلى عن كبريائه، ويتضرع طالبًا الرحمة. ويتولى ماء السماء إبلاغ رسالة الإنذار الإلهى هذه ببعث ثلاثة من رسله، هم البرق، والرعد، والصواعق، وكلها ظواهر تصاحب هطول المطر الشديد من السحب الركامية فى جو مفعم بالاضطراب.

والسحابة الركامية تكون دائمًا ضخمة الحجم جدًا، وتتكون من جمع، وضم عدة سحب مع بعضها برابطة الجذب الكهربى بين الشحنات السالبة على أجزاء، والشحنات الموجبة على أخرى، ثم يبدأ تشكيل هذه السحب على هيئة الهرم، أو بالأحرى الجبل بتأثير الرياح (أو تيارات الهواء الصاعدة) التى تدفع هذه السحب المتآلفة إلى النمو فى الاتجاه الرأسى،... وهكذا تندفع أجزاء السحابة الركامية إلى التراكب فوق بعضها، وعند اكتمال نموها يمكننا تمييز ثلاث طبقات، الواحدة فوق الأخرى.

أ ـ الطبقة الدنيا: (القريبة من سطح الأرض)، وتمثل قاعدة السحابة، وتكون على ارتفاع قريب حوالى ٢-٣ كيلو متر فوق سطح البحر، ومنها ينزل «الودق» إذ تحتوى هذه الطبقة على نقط الماء النامية. وكلما توافرت النقط النامية (الودق) فى قاعدة السحابة الركامية بدت قاتمة اللون، لوفرة ما تحجب من الضوء.

ب ـ الطبقة الوسطى: وتحتوى على نقط الماء السائل «فوق المبرد»، وهو الماء الذى يحتفظ بحالة السيولة رغم انخفاض درجة الحرارة إلى تحت مستوى الصفر المئوى بكثير، وهى منطقة تكون بالطبع عديمة الاستقرار.

جـ ـ الطبقة العليا: أو قمة جبل السحابة الركامية، وتحتوى على حبات البرد التى تتكون من تجميع بللورات الثلج، وعلينا أن نتذكر هنا أن الماء المتجمد (الثلج أو البرد) أقل كثافة (أخف) من الماء السائل،... وهذه خاصية أو أعجوبة ينفرد بها الماء من بين سائر عناصر ومركبات الكون الأخرى.

ويمتد ارتفاع السحب الركامية من القاعدة إلى القمة، حتى زهاء خمسة عشرة كيلو متر،.. أى أننا نكون بصدد جبال شامخة فى السماء، يبلغ ارتفاع بعضها خمسة عشر كيلو متر، أى حتى نهاية طبقة التربو سفير، وهو ارتفاع لا تبلغه أبدًا جبال الأرض.

وإذا تذكرنا أن درجة الحرارة تواصل انخفاضها كلما صعدنا قدمًا

فى طبقة التربوسفير، فإننا نجد أنفسنا ننتقل من حرارة تبلغ فى المتوسط عشرين درجة فوق الصفر المئوى عند قاعدة السحابة الركامية، إلى حرارة بالغة الانخفاض عند قمة ذلك الجبل السماوى. قد تصل إلى أربعين أو خمسين درجة تحت الصفر المئوى، بل إلى سبعين درجة تحت الصفر المئوى عند خط الاستواء، ومعنى هذا أنه فى حدود مسافة صغيرة لا تزيد عن خمسة عشرة كيلو مترا، كالمسافة بين شبرا وميدان التحرير على سبيل المثال،.. ولكن فى الاتجاه الرأسى نشهد تباينًا مذهلاً فى الحرارة بين جو معتدل مائل للحرارة فى أسفل السحابة الركامية، إلى زمهرير شديد مثل منطقة القطبين، أو أشد برودة عند قمتها،.. وهو أمر لا يكاد العقل يتصوره رغم أنه حقيقة لا جدال فيها!!!

وعندما يرسل الله الرياح (تيارات الهواء الصاعدة) لواقح لتقذف بنويات التكاثف فى رحم السحابة الركامية، تبدأ نقط الماء بالغة الصغر فى التجمع لتكوين «الودق» الذى يشرع فى الانهمار، ولكن نشاط التكاثف يتولد عنه خروج الحرارة الكامنة؛ تلك الحرارة التى استعملت فى التبخير، واختزنت فى بخار الماء،... ومن ثم فإن السحابة الركامية تصبح أسخن كثيراً من الجو والسماء حولها، ويتولد منها تيارات حمل محلية، تحمل نقط الماء فوق المبرد المتكون داخل السحابة (فى الطبقة الوسطى) إلى ارتفاعات شاهقة، تنخفض فيها

درجة الحرارة إلى الحد الذى يسمح بتكوين بللورات الثلج (حوالى ٤٠-٥٠ درجة تحت الصفر)، .. ومع تصاعد نقط الماء فوق المبرد التى تتحول إلى بللورات ثلج، تبدأ تلك البللورات فى التجميع مع بعضها عن طريق التصادم بسبب الحركة الدوامية داخل السحابة، واختلاف سرعة المكونات باختلاف أحجامها، وتتكون حبات البَرَدَ التى تنمو ويزداد حجمها ووزنها، فتبدأ فى التساقط نحو الأرض من أعلى السحابة الركامية، أو قمة الجبل السماوى، فتمر فى طريقها على نقط الماء فوق المبرد (فى المنطقة الوسطى) فيتحول الكثير من نقط الماء فوق المبرد إلى بللورات ثلج، بعضها على نحو مفاجئ، والبعض الآخر تدريجيًا، لأن تلك النقط غير مستقرة، بمعنى أنها قابلة للتجمد والتحول إلى ثلج، ويعد تساقط حبات البرد من أعلى السحابة، العامل الأكبر فى تحول نقاط الماء فوق المبرد إلى بللورات ثلج تُضَافُ وتُجْمَعُ إلى ما ينزل من أعلى السحابة، فتنشط بذلك عمليات التكاثف، ويترسب أغلب بخار الماء الموجود فى السحابة على هذه المكونات الجديدة، ويزداد حجم حبات البرد وهى تهبط متثاقلة إلى الأرض. وفى العادة فإن حبات البرد تكون فى حجم حبات الحمص الصغيرة، أو أصغر ولكن قد تصل إلى حجم ثمار الرمان وربما أكبر!!

ويؤدى تكوين «البَرَد» وحركته فى السحب الركامية إلى خلق

شحنات كهربائية هائلة داخل هذه السحب، وتستقر غالبًا الشحنات الكهربية السالبة (الإلكترونات) قريبًا من القاعدة عند مستوى خمس درجات مئوية تحت الصفر، بينما تتركز الشحنات الموجبة فى الطبقات الأعلى عند درجات حرارة بالغة الانخفاض، كما قد توجد شحنات موجبة ثانوية فى طبقة أدنى بقاعدة السحابة عند درجة تناهز الصفر المئوى.

وتحتوى السحب الركامية على كميات هائلة من الشحنات الكهربية، وتُقَدِّر القياسات العلمية ظهور ما يقارب ألف مليون (مليار) شحنة سالبة فى غضون إحدى عشرة دقيقة فقط عند مستوى عشر درجات تحت الصفر، ولا شك أن مثل هذه الشحنات الهائلة تصنع ضغوطًا كهربية، داخل السحابة الركامية عند تساقط حبات البرد من أعلى السحابة إلى أسفل، أى يحدث تفريغ كهربى، تتولد منه شرارة كهربية، وهذا ما يعرف باسم «البرق».

البرق شرارة كهربية بالغة السخونة، شديدة التوهج، فهو لهب متألق، ينبعث نتيجة حدوث تفريغ كهربى بين أجزاء السحابة الركامية عند تساقط حبات البَرَد من قمة ذلك الجبل السماوى، أو نتيجة حدوث تفريغ كهربى بين سحابتين ركاميتين متجاورتين، كما قد يحدث التفريغ الكهربى بين السحاب الركامى من جهة، وسطح الأرض من جهة أخرى، عندما تكون السحب قريبة، وفى هذه الحالة

الأخيرة يسمى «الصاعقة»، . . . حيث تندلع الشرارة الكهربية من السحاب الركامى إلى الأرض، فتحرق كل ما تمسه فوق سطحها من شجر، أو دواب أو بشر أوْ أبنية أو سفن تتحرك فى البحار والمحيطات، مسببة موتًا فجائيًا نسميه «الصعق» ومحدثة دمارًا شديدًا لكل ما تمسه أصابعها النارية الطويلة، . . . حيث يبلغ طول شرارة البرق الواحدة عند حدوث الصواعق ما يزيد على ألف وخمسمائة متر وقد يصل طول شرارة البرق عند حدوث التفريغ الكهربى بين السحب إلى ما يزيد على ثلاثة آلاف متر أو أكثر من هذا!!!

ويتولد من اندلاع البرق تسخين شديد ومفاجئ بالغ السرعة للهواء، لأن البرق كما قلنا ليس إلاّ شرارة كهربية هائلة، أو بكلمات أخرى لهب متوهج يتقد فى لحظة خاطفة، وقد تصل درجة حرارة الهواء إلى ألف وخمسمائة درجة مئوية (١٥٠٠م) نتيجة مرور البرق فيه، وينجم عن هذا تمدد هائل ومفاجئ فى حجم الهواء، يعقبه موجة من التضاغط الذى يُوَلّد موجة صوتية هادرة، هى ما نسميه «الرعد»، والرعد إذن هو ثمرة البرق. يعنى هو صوت حركة الهواء نتيجة التسخين المفاجئ المتولد من مرور البرق.

وحركة الهواء هى الريح التى نسميها «عاصفة»، عندما تشتد سرعتها وحيث أن الرياح هى اليد التى بَنَتَ وشكلت، أو خلقت

وصَوَّرَت السحب الركامية التى ينبعث فيها كلٌّ من البرق والرعد والصواعق، . . . فهذا النوع من الرياح هو ما نطلق عليه «عواصف الرعد». وقد بينت الإحصاءات العالمية للأرصاد الجوية، أن عدد عواصف الرعد التى تحدث بجو الأرض أكثر من أربعين الف عاصفة فى اليوم الواحد، وتتولد من العاصفة الواحدة فى المتوسط كمية من الطاقة الكهربية تقدر بحوالى ٢,٢ مليون كيلو وات/ ساعة، وقد تتمخض العاصفة الواحدة عن عدة آلاف من عمليات التفريغ الكهربى، يعنى عدة آلاف من ومضات البرق، وقد يتكرر حدوث البرق فى موضع واحد داخل السحاب، ويصل فى بعض الأحوال إلى أربعين ومضة (إبراقًا) فى الدقيقة الواحدة، وتتلاشى معظم الومضات فى أقل من ثانية واحدة، ولكن بعض الومضات قد تستغرق الواحدة منهن زهاء ثانية واحدة كاملة قبل أن يتلاشى وميضها.

والبرق والرعد متلازمان، ويحدثان فى نفس الوقت والمكان، إلاَّ أننا نرى البرق قبل أن نسمع الرعد، لأن البرق يجرى بسرعة الضوء التى تبلغ مليون ضعف سرعة الصوت فى الهواء التى يجرى بها الرعد حتى يصل إلى آذاننا، وصوت الرعد رهيب مخيف، فهو يهدر، أو يقعقع، أو يزأر، أو يصفق، . . . وقد يحاكى أحيانًا قصف المدافع فى معركة حربية طاحنة، وترجع هذه الأصوات كلها إلى

ارتداد الموجة الصوتية الهادرة بين السحب، أو من قمم الجبال الشامخة، فهى إذن صدى الرعد يصرخ فى آذاننا!!!

علينا أن نتأمل قليلاً فى أن «البَرَدَ» وهو ماء متجمد فى درجة حرارة بالغة الانخفاض، تصل إلى ٤٠-٥٠ درجة مئوية تحت الصفر، بل قد تكون أشد انخفاضًا... ذلك أن الماء بالغ البرودة ينتج نارًا ذات لهب، هى البرق الذى قد يتحول إلى صواعق مهلكة فى عواصف الرعد التى تدمر كل شىء فى طريقها. إننا ههنا أمام الجبروت الإلـهى القاهر الذى لا يُبقى للإنسان حولاً ولا قوة.

ولقد وصف الله ـ سبحانه وتعالى ـ السحاب الركامى، وأشار إلى كل الحقائق العلمية التى أفضنا فيها آنفًا بإيجاز معجز، وصياغة بالغة الدقة، وبلاغة مذهلة، لا سبيل إلى وصفها فقال: ﴿ **أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يُزْجِي سَحَابًا ثُمَّ يُؤَلِّفُ بَيْنَهُ ثُمَّ يَجْعَلُهُ رُكَامًا فَتَرَى الْوَدْقَ يَخْرُجُ مِنْ خِلالِهِ وَيُنَزِّلُ مِنَ السَّمَاءِ مِن جِبَالٍ فِيهَا مِن بَرَدٍ فَيُصِيبُ بِهِ مَن يَشَاءُ وَيَصْرِفُهُ عَن مَّن يَشَاءُ يَكَادُ سَنَا بَرْقِهِ يَذْهَبُ بِالأَبْصَارِ** ﴾[1].

قوله ﴿ **أَلَمْ تَرَ** ﴾ سؤال لإثارة الانتباه إلى سبق الرؤية، فهو يلفت نظر القلوب إلى أنه ﷺ قد سبق له أن رأى، مشيرًا بذلك إلى العلم السابق القديم الذى ناله قبل ظهور الخلائق، فالسؤال لا يشكك فى

---

(١) سورة النور ـ الآية ٤٣ .

الرؤية، ولا يستفسر عنها، بل يؤكدها، بدليل قوله بعد هذا السؤال مباشرة فى نفس الآية ﴿ فترى ﴾[1] يعنى لقد سبق لك أن رأيت، وها أنت ترى مرة أخرى لتتذكر، ولاشك أن لفت الانتباه إلى حضور النبى الأمى ﷺ فى ذلك المقام أجلى من أن تُغمض عنه عين المتأمل، وأوضح من أن تُعاد الإشارة إليه مرة أخرى!!!

﴿ يُزْجِي سَحَابًا ﴾: يدفع سحابًا، يعنى يسوقه، والدفع أو السَّوْقُ تحريك من الخلف، فجعل - سبحانه وتعالى - بهذا التعبير يده تقوم من وراء السحاب المزجى، . . . ومن ثم فقد أشار - كما قلنا من قبل - إلى أن يده أى روحه ترسل الرياح التى تسوق السحاب، فالرياح يد الروح والروح يد الله.

قوله: ﴿ يُزْجِي سَحَابًا ثُمَّ يُؤَلِّفُ بَيْنَهُ ثُمَّ يَجْعَلُهُ رُكَامًا ﴾ وَصْفٌ لمراحل بناء وتشكيل السحاب الركامى، الذى يتكون من عدة سحب تُدفع للتجمع معًا، ثم يتم الربط بينها، ثم تنمو رأسيًا، ولما كانت الرياح (تيارات الهواء) هى التى تقوم بهذا العمل (البناء والتشكيل) فقد أصبح مفهومًا لمن تدبر القرآن، أن الرياح قد حملت فى أثناء ذلك نويات التكاثف (أو بذور المطر) إلى السحاب،

---

(١) أنظر إلى «فترى» هذه وتذكر تلك!!

فتتجمع نقط الماء بالغة الصغر، وتتكون قطرات المطر ﴿فَتَرَى الْوَدْقَ يَخْرُجُ مِنْ خِلالِهِ﴾.

قوله: ﴿وَيُنَزِّلُ مِنَ السَّمَاءِ مِن جِبَالٍ فِيهَا مِن بَرَدٍ﴾.

يصف مرحلة اكتمال بناء السحاب الركامى، يعنى وعندما يصير السحاب مثل الجبال طولاً، ترتفع قاماتها شاهقة فى أعالى السماء (طبقة التغير الجوى Troposphere) حينئذ ينزل من السماء أى من جهة العلو من تلك الجبال السماوية، أو السحب الركامية بعض (من) حبات ماء متجمد (بَرَد).

وعندما يقول «ينزل من جبال» فقد بين أن حبَّات البَرَد تنزل من قمم الجبال أى من الطبقات العليا للسحب الركامية إلى الطبقة الأدنى، . . . حيث يتوالى نمو وتساقط البرد فى طريقه إلى الأرض. فهذا وصف مَنْ يشهد ما يحدث داخل السحاب، ﴿فَيُصِيبُ بِهِ مَن يَشَاءُ وَيَصْرِفُهُ عَن مَّن يَشَاءُ﴾ وهذا وصف من يتحكم فى حركة البرد المتساقط، ويضبط اتجاهه، ويشهد ما يقع على الأرض من أحداث.

﴿يَصْرِفُهُ﴾ يرده عن الاتجاه الذى كان يسير فيه، ويدفعه إلى وجهة أخرى فهو ـ سبحانه وتعالى ـ يغيّر وجهة البرد، ليحرم أو يحمى من تختاره المشيئة الآلهية من أثر البرد القادم من السماء.

﴿ يَكَادُ سَنَا بَرْقِهِ يَذْهَبُ بِالأَبْصَارِ ﴾ هذه نبوءة تعلن منذ أربعة عشر قرنًا من الزمان أن الإنسان سيصعد فى السماء، ويركب السحاب فى الطائرات، لأن خطر الوميض المتألق المتوهج إلى حد الإبيضاض وهو «السنا» المنبعث من البرق على الأنصار، إنما يتعرض لقائدى وراكبى الطائرات الذين يسوقهم الحظ العاثر ليعبروا وينظروا فى السماء أثناء عاصفة رعدية تندلع منها شرارات البرق الكهربية، فالسنا المنبعث من البرق حينذاك، إن أتيح له أن ينفذ فى مقلة (كرة) العين أحرق الشبكية (Retina)، وذهب بالبصر وانقلبت الدنيا فى نظر هؤلاء التعساء إلى ظلام دامس أو ليل دائم، ولذلك يمتن الله علينا بنعمة تقليب الليل والنهار أى جعل كل منهما يتحرك فوق الآخر على الدوام، وهى نعمة ما كان لنا أن ندركها لولا تمتعنا بنعمة البصر، فقال بعد ذلك مباشرة ﴿ يُقَلِّبُ اللَّهُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَعِبْرَةً لأُوْلِي الأَبْصَارِ ﴾[1] فبدون الأبصار لن نعرف الليل ولا النهار، . . وبهذا السياق يمن الله علينا بحمايتنا من الخطر الداهم لسنا البرق على أبصارنا ولننظر الآن إلى البلاغة المذهلة التى لخصت حقيقة البرق فى حرف واحد هو «الهاء» الذى نَسَبْتَ به الْبَرْقَ إلى الْبَردَ فقال «برقه» فأشار بحكمة عزيز مقتدر، إلى أن البرق يولد من البرد، ولذلك يجب أن يُنسب إليه.

ويمجد الله نفسه قائلاً: ﴿هُوَ الَّذِي يُرِيكُمُ الْبَرْقَ خَوْفًا وَطَمَعًا وَيُنشِئُ السَّحَابَ الثِّقَالَ (١٢) وَيُسَبِّحُ الرَّعْدُ بِحَمْدِهِ وَالْمَلائِكَةُ مِنْ

(١) سورة النور ـ الآية ٤٤ .

خيفَته وَيُرْسِلُ الصَّوَاعِقَ فَيُصِيبُ بِهَا مَن يَشَاءُ وَهُمْ يُجَادِلُونَ فِي اللَّه وَهُوَ شَدِيدُ الْمِحَالِ ﴾[1].

يمن الله علينا بأنه ـ سبحانه وتعالى ـ يمكننا من رؤية البرق، ﴿ هُوَ الَّذِي يُرِيكُمُ الْبَرْقَ ﴾ يعنى ليس أحد غيره ـ سبحانه وتعالى ـ يفعل هذا لأن ظهور البرق يحدث عند تكوين السحاب الركامى الذى تخلقه وتصوره الرياح، وإرسال الرياح بيد الله (روح الله) وحده، ومعنى الإراءة هنا وموضع المنة، هو إبعاد البرق عنا فى السماء إلى المسافة أو الارتفاع الذى نتمكن معه من رؤية البرق، حيث يُرى على هيئة ومضات تلمع على صفحة السماء، وتسمى «صحائف البرق» لأنه إذا اقترب البرق منا وقعت الصاعقة التى لا نرى معها شيئًا، فإنها تحرق كل شيء تمسه بإذن ربها، فليست «الصاعقة» إلاّ برقًا وصل بين السماء (السحاب) والأرض، وسنا البرق القريب يذهب بالأبصار، فالحمد لله الذى أرانا البرق ولم يحرقنا أو يُعمينا به!!!.

﴿ خَوْفًا وَطَمَعًا ﴾ليحدث لديكم خوفًا من عذاب الله، وطمعًا فى رحمته، يعنى نريكم البرق لنخوفكم من عذاب الله «ونثير» فى صدوركم الطمع فى رحمة الله.

﴿ وَيُنشِئُ السَّحَابَ الثِّقَالَ ﴾ ويبنى ويقيم السحاب الذى يتزايد وزنه، وتزداد كثافته بتكاثف نقط الماء وبللورات الثلج، لتصنع

(1) سورة الرعد ـ الآيتين ١٢ ، ١٣ .

«الودق» و «البَردَ» اللذان يتساقطان إلى الإرض عند انهمار المطر. ولا شك أن «أثقل» السحاب هو السحاب الركامى الذى يحدث فيه البرق، ولا أدل على ثقله من وصف الله له بأنه جبال فى السماء.

﴿ وَيُسَبِّحُ الرَّعْدُ بِحَمْدِهِ ﴾: الرعد ثمرة البرق، وهو الهواء الذى يكابد موجة من التفريغ والتضاغط، تنتج من التمدد المفاجئ فى حجمه بسبب مرور البرق (الشرارة الكهربية) فيه، والتسبيح تنزيه الله عن أن يحيط بوصفه علم، أو أن تدرك كنه ذاته معرفة، أو أن يشار إليه فى شىء. والتسبيح عمل قلبى (باطنى) يُجَسِّمُه أو يُظْهِرُه، ويُعبر عنه النطق بالثناء على الله، أى تلفظ اللسان بأسماء الله الحسنى، وعبارات المدح للذات العلية، وذكر صفاته وأفعاله وأقواله التى أوحاها إلى أنبيائه - صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين - وهذا هو الحمد (الثناء) ولكن المخلوقات جميعًا لا تحمد الله إلاّ بما حمد الله به نفسه، لأنها لا تعلْم عن الله إلاّ ما علمَّها الله، فمحال أن تثنى عليه إلاّ بما أثنى به على نفسه - سبحانه وتعالى - فلا فضل للخلائق على الله إذا حمدته، لأن الفضل كله لله جاد عليهم بحمده، إذ أتاح لهم أن يحمدوه بما حمد به نفسه، فلا يصح نسبة الحمد إلاّ إليه لذلك قال ﴿ بِحَمْدِهِ ﴾.

الرعد إذن هو لسان الهواء الناطق بالحمد، فهو المعبر عن تسبيح قلب الهواء ﴿ تُسَبِّحُ لَهُ السَّمٰوَاتُ السَّبْعُ وَالأَرْضُ وَمن فِيهِنَّ وَإِن مَن

شَيْءٍ إِلاَّ يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ وَلَكِن لاَّ تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ إِنَّهُ كَانَ حَلِيمًا غَفُورًا ﴾[1].

﴿ وَالْمَلائِكَةُ ﴾ هم الأرواح الطاهرة، سكان السماوات وهم يشاركون الرعد (الهواء) التسبيح والحمد.

﴿ مِنْ خِيفَتِهِ ﴾: يعنى بدافع أو واعز من خيفة الله.

«والخيفة» هى خوف العارفين بالله، وهو الخوف النابع من «معاينة» أن المشيئة الإلهية لا يحكمها شىء، لأنها هى القانون الذى تصدر بموجبه جميع الأشياء، فمشيئة الله هى أصل ظهور كل شىء، ولا شىء يحكم مشيئة الله، فلا يوجد من يحاسب الله فهو ـ سبحانه وتعالى ـ لا يخشى حسابًا من أحد، ولا يخاف من عاقبة شىء، أو كما قال ﴿ وَلا يَخَافُ عُقْبَاهَا ﴾[2] والخيفة هى أرقى مراتب الخوف، ولذلك لم ترد الخيفة فى القرآن إلاَّ لوصف خوف الأنبياء والملائكة وهؤلاء وأولئك هم حقًا العارفون بالله.

وقد جاء بالقرآن العظيم بعدة ألفاظ ترتب درجات الخوف وهى:

١- الخوف: وهو الشعور بقرب وقوع ما يسوء من المجهول؛ ألم، أو فقد محبوب، أو موت، وهو نتيجة الإحساس العميق بالذنب،

---

(١) سورة الإسراء ـ الآية ٤٤ .

(٢) سورة الشمس ـ الآية ١٥ .

وحتمية العقاب بموجب العدل الإلهى، وهذا الشعور يعانى منه جميع الخلائق حتى الشيطان الذى قال عند احتدام القتال بين المؤمنين والكفار ﴿ إِنِّي أَرَىٰ مَا لَا تَرَوْنَ إِنِّي أَخَافُ اللَّهَ وَاللَّهُ شَدِيدُ الْعِقَابِ ﴾[1]. وكل الخلائق من أسلفها إلى أعلاها تعانى الخوف.

٢- الرهبة: وهى الخوف النابع من إدراك ضعف النفس وعيوبها ونوازعها، التى قد تدفع الإنسان للمهالك، فمصدر الخوف هنا هو نفس الإنسان، فالرهبان هم الرجال الذين خافوا من أن تدفعهم شهوات النفس إلى الانغماس فى طلب لذات الدنيا، فخافوا على أنفسهم من أنفسهم (شهواتهم) فألزموا أنفسهم بحياة الزهد، والتقشف، وحبسوا أنفسهم فى الأديرة بعيدًا عن مباهج «الفتن». والمنافقون «يرهبون» المؤمنين لإدراكهم ضعف نفوسهم، فهم كافرون ولكنهم لا يستطيعون الجهر بالكفر، فيكتمونه ويظهرون الإسلام جليًا لمنافع دنيوية، ودرءًا لأضرار، ولذلك وصف الله خوفهم من المؤمنين بالرهبة، لأنه نابع من ضعف الذات.

﴿ لَأَنتُمْ أَشَدُّ رَهْبَةً فِي صُدُورِهِم مِّنَ اللَّهِ ﴾[2] وقوله ـ سبحانه

(١) سورة الأنفال ـ الآية ٤٨ .
(٢) سورة الحشر ـ الآية ١٣ .

وتعالى ـ لبنى إسرائيل ﴿ وَإِيَّاىَ فَارْهَبُونِ ﴾[١] يعنى يجب عليكم أن تخافوا من أنفسكم، التى تسول لكم نوازعها معصيتى، والخروج على شريعتى، فراقبوا أنفسكم وامنعوها من مخالفتى، وحاسبوها حتى لا تقعوا تحت طائلة عقابى.

٣- الخشية: وهى خوف العلماء، أى الخوف القائم على العلم قال: ﴿إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ ﴾[٢] وقال: ﴿ وَتِجَارَةٌ تَخْشَوْنَ كَسَادَهَا ﴾[٣] ولم يقل تخافون كسادها لأن التجارة قائمة على الحساب، ولا تُتْرك للمجهول. وقال لموسى وهو يهرب ببنى إسرائيل من وجه فرعون ﴿ لاَّ تَخَافُ دَرَكًا وَلَا تَخْشَىٰ ﴾[٤] يعنى لا تخف دركًا، ولا تخشى غرقًا، لا تخف من أن يدركك فرعون وجنوده، فإنهم لن يصلوا إليك ولكن ليس لدى موسى دليل على حصول النجاة، فاستعمل ـ سبحانه ـ لفظ الخوف «لا تخاف» أما الغرق فإن موسى يملك دليلاً على النجاة منه، وهو نجاته من الغرق وهو طفل صغير، ألقته أمه فى اليم،.. وحيثما وجد الدليل تحول الخوف إلى خشية فقال: ﴿ وَلَا تَخْشَىٰ ﴾ يعنى من الغرق والخشية التى

---

(١) سورة البقرة ـ الآية ٤٠ .

(٢) سورة فاطر ـ الآية ٢٨ .

(٣) سورة التوبة ـ الآية ٢٤ .

(٤) سورة طه ـ الآية ٧٧ .

حث الله المؤمنين على التحلى بها، هى ثمرة العلم بلقاء الله فهى خوف المقام بين يدى الله.

ونعود إلى سورة الرعد وحديث القرآن الكريم عن الصواعق فنجد أن الخطاب القرآنى انتقل فجأة إلى صيغة الغائب فقال ﴿ وَهُمْ يُجَادِلُونَ فِي اللَّهِ وَهُوَ شَدِيدُ الْمِحَالِ ﴾[1].

﴿ يُجَادِلُونَ فِي اللَّهِ ﴾: يشككون فى صدق أنبيائه ورسله، وفى صحة وحيه (سلامته من الخطأ) وفى تحقق وعده ووعيده، وذلك بتقديم أدلة زائفة، وقرائن مضللة، وأقوال مزخرفة، يحاولون بها إلباس الباطل ثوب الحق، فالمجادلة فى الله مجادلة بالباطل ابتغاء دحض الحق.

فمن «هم»؟! من هؤلاء الذين يعملون هذا؟! إنهم المنافقون الذين ﴿ يُخَادِعُونَ اللَّهَ وَالَّذِينَ آمَنُوا ﴾[2] أى يحاولون خداع الله والذين آمنوا بإظهار الإيمان، حتى يتمكنوا من تحقيق غايتهم، وهى تقويض أساس الإيمان، ولكنهم واهمون عاجزون عن الوصول إلى ما يريدون، لأنهم فى الحقيقة لا يخدعون إلاّ أنفسهم ﴿ وَمَا يَخْدَعُونَ إِلاَّ أَنفُسَهُمْ وَمَا يَشْعُرُونَ ﴾[3].

---

(١) سورة الرعد ـ الآية ١٣ .

(٢) سورة البقرة ـ الآية ٩ .

(٣) سورة البقرة ـ الآية ٩ .

لماذا؟!! لأنهم لا يستطيعون خداع الله، فأنىّ لهم أن يُخفوا حقيقتهم وحقيقة أعمالهم على من ﴿ يَعْلَمُ السِّرَّ وأَخْفَى ﴾[1] يعنى يعلم (يتبين) ما يحفظه الإنسان فى صدره، ولا يطلع عليه أحدٌ من الخلق، ويعلم ما هو أخفى من السر، إذ يعلم من نفس الإنسان مالا يعلمه الإنسان نفسه، فكيف يمكن خداعه سبحانه وتعالى - ﴿ إن المنافقين يخادعون الله وهو خادعهم ﴾[2]. لأنه - جل فى علاه - يدبر لهم أن يقعوا فى «الهاوية» بأعمالهم التى يتوهمون أنها تجلب لهم الفوز والنجاة فى الدنيا والآخرة، فإن كانوا يمكرون فالله خير الماكرين، وإن كانوا يسرعون فى مكرهم فالله أسرع مكرًا، وإن كانوا يأمنون مكر الله فإن هذا من فرط جهلهم وظلمهم لأنفسهم، لأنهم يغفلون عن الحقيقة التى تعلن بكل وضوح ﴿وَلا يَحِيقُ الْمَكْرُ السَّيِّئُ ﴾[3] فكيف ﴿ يُجَادِلُونَ فِي اللَّهِ وَهُوَ شَدِيدُ الْمِحَالِ﴾[4].

«**شديد المحال**»: شديد المكر، بالغ الحجة، فأنىّ لهم القدرة على مجادلته فى القيامة عند الحساب، ﴿ يَوْمَ تَأْتِي كُلُّ نَفْسٍ تُجَادِلُ عَن نَّفْسِهَا وَتُوَفَّىٰ كُلُّ نَفْسٍ مَّا عَمِلَتْ وَهُمْ لا يُظْلَمُونَ ﴾[5].

---

(١) سورة طه - الآية ٧ .
(٢) سورة النساء - الآية ١٤٢ .
(٣) سورة فاطر الآية ٤٣ .
(٤) سورة الرعد - الآية ١٣ .
(٥) سورة النحل - الآية ١١١ .

﴿ الْمَكْرُ ﴾: إخفاء الحقيقة، والله شديد المكر لأنه ـ سبحانه وتعالى ـ قد أخفى عنهم حقيقة أنفسهم وأعمالهم، فأنى لهم أن يصلوا إليها، أو يعرفوها قبل أن يجليها لهم يوم القيامة. حين يعلمون أنهم من أهل الجحيم!!!

وشبه الله حال المنافقين مع الوحى، بحال قوم تعرضوا لعاصفة رعدية شديدة، فاقترب منهم سحاب ركامى ثقيل، فأظلمت السماء والأرض بغتة، وأخذت الريح تضرب كل شىء والمطر ينهمر، والرعد يهدر، والبرق يندلع متوهجًا فى السماء، يوشك أن يرسل بالصواعق على أهل الأرض فقال: ﴿ أَوْ كَصَيِّبٍ مِّنَ السَّمَاءِ فِيهِ ظُلُمَاتٌ وَرَعْدٌ وَبَرْقٌ يَجْعَلُونَ أَصَابِعَهُمْ فِي آذَانِهِم مِّنَ الصَّوَاعِقِ حَذَرَ الْمَوْتِ وَاللَّهُ مُحِيطٌ بِالْكَافِرِينَ (١٩) يَكَادُ الْبَرْقُ يَخْطَفُ أَبْصَارَهُمْ كُلَّمَا أَضَاءَ لَهُم مَّشَوْا فِيهِ وَإِذَا أَظْلَمَ عَلَيْهِمْ قَامُوا وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَذَهَبَ بِسَمْعِهِمْ وَأَبْصَارِهِمْ إِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴾[(١)].

﴿ كَصَيِّبٍ ﴾: الكاف للتشبيه، والصيب الوابل من المطر؛ أى السيل المنهمر من السماء مصوبًا إلى الأرض، والمشبه هو القرآن وحى الله إلى محمد ﷺ وهنا ـ إذن ـ أحد المواضع التى يقيم الله فيها تماثلاً بين القرآن وماء السماء، وهو هنا يصف موقف المنافقين عند سماع القرآن، بما فيه من وعد ووعيد وإنذار وتهديد.

---

(١) سورة البقرة الآيتين ١٩-٢٠ .

﴿ ظُلُمَاتٌ ﴾: حبَّاتُ البَرَدِ (الماء المتجمد)، وسماها ظلمات لأنها تخفى الماء الذى فيها، ولأنها تنزل من سحب تحجب النور، وتزداد اسودادًا عند قواعدها عند تساقط الودق والبرد، ولأنها فى مثل هذا المقام تحجب رحمة الله الكامنة فى الماء، كما تحتجب رحمة الله المودعة فى آيات القرآن عن المنافقين المخادعين.

﴿ وَرَعْدٌ وَبَرْقٌ ﴾: قدم الرعد على البرق رغم أن البرق يُرى قبل أن يُسمع الرعد، لأننا هنا بصدد وصف استماع المنافقين إلى القرآن، فالقرآن ظاهرة سمعية تناظر بالنسبة للمنافقين هدير الرعد الذى يسبب الرعب والهلع، ولذلك قال ﴿ يَجْعَلُونَ أَصَابِعَهُمْ فِى آذَانِهِم ﴾ رغبة منهم فى عدم الاستماع إلى وحى الله، فهم بوضع الأصابع فى الآذان، يحاولون سد الطريق الذى يسير فيه القرآن؛ طريق السمع رغم أن هدف فعلهم هذا هو حماية أنفسهم من خطر الموت من الصواعق التى يهددهم بها القرآن.

﴿ الصَّوَاعِقِ ﴾ تُرى قبل أن تسمع، لأنها بوراق «جمع برق» تجرى بسرعة الضوء وتصل ما بين السحاب فى السماء والأرض، ولكننا ههنا فى مقام الاستماع إلى «رعد» القرآن فى آذان المنافقين الذى يلد برق الهلاك الوشيك لهم فى جهنم على صفحة قلوبهم المظلمة، ولسنا أمام رعد الهواء الذى يُولد من برق السحاب فى السماء.

قوله ﴿ مِّنَ الصَّوَاعِقِ حَذَرَ الْمَوْتِ ﴾ فيه تقديم وتأخير لأنه يعنى:

«حذر الموت من الصواعق» فقدم الصواعق مصدر الخطر، وأخَّر الحذر لبيان شدة ما أصابهم من الهلع، وبيان عجزهم عن دفع مداهمة الخطر الذى سيقع بهم لا محالة ﴿وَاللَّهُ مُحِيطٌ بِالْكَافِرِينَ﴾ قد أحكم حولهم بأعمالهم أسوار جهنم التى ستقبض عليهم عندما يقعون فيها حيث لا مأوى ولا مفر.

﴿يَكَادُ الْبَرْقُ يَخْطَفُ أَبْصَارَهُمْ﴾ لشدة قرب سناه من أعينهم الشاخصة، ﴿كُلَّمَا أَضَاءَ لَهُم﴾ عند وميضه طريقهم على الأرض ﴿مَّشَوْا فِيهِ وَإِذَا أَظْلَمَ عَلَيْهِمْ﴾ الطريق ﴿قَامُوا﴾ أى وقفوا ولم يستطيعوا السير لأن البرق نور خاطف سريع الانقضاء، فهو ليس إلاّ وميضًا لا يمكث إلاّ لحظة، ومحالٌ أن يضىء طريقًا يمكن السير عليه، لأن السير على الطريق يحتاج إلى سراج منير لا إلى برق قريب أو بعيد.

والآية تجسم ببلاغة مذهلة، تردد المنافقين فى ريبهم بين السير على الطريق إلى الله، والتوقف والانقطاع، وحيرتهم الدائمة مع هذا القرآن الذى لا يريدون الإيمان به، وتسليم أنفسهم لأحكامه ﴿وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَذَهَبَ بِسَمْعِهِمْ وَأَبْصَارِهِمْ﴾ بذهاب النور من أفئدتهم (عقولهم) وتركهم فى ظلام دامس، لا يسمعون ولا يرون فيه شيئًا، ولكنه ـ سبحانه وتعالى ـ ترك لهم قليلاً من النور من أجل أن يبتليهم (يمتحنهم) ﴿إِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ وضع لكل شىء بداية فهو

قادر، ووضع لكل شىء نهاية فهو مقتدر، وبين البداية والنهاية حدد المقدار فهو قدير.

﴿ وَمِنْ آيَاتِهِ يُرِيكُمُ الْبَرْقَ خَوْفًا وَطَمَعًا وَيُنَزِّلُ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَيُحْيِي بِهِ الأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴾(١).

٣

مـــاء الأرض

عند قمم الجبال تنتهى السماء، وتبدأ الأرض، وعلى رؤوس الجبال الشاهقة التى تمثل مواضع الاتصال بين الأرض والسماء يتجلى الماء تيجانًا ناصعة البياض.

إن قمم الجبال الشامخة، تعد بمثابة «مُكثفَّات» هائلة، بالغة الارتفاع أقامها الله هناك بين السماء والأرض، .. حيث تنخفض درجة الحرارة إلى ما تحت نقطة التجمد (درجة الصفر المئوى) لتكثيف بخار الماء الصاعد إلى السماء مع الرياح (تيارات الهواء) الرطبة من الأسطح المائية الدافئة على الأرض، فعندما تصطدم الرياح بتلك

القمم الباردة، يتحول بخار الماء مباشرة إلى ثلج يظل يتراكم بعضه فوق بعض، مكونًا التيجان الجليدية، التى تزين رؤوس الجبال الشامخة طوال العام، وتعد بمثابة خزائن أرضية علوية للماء؛ وعاء الروح تقوم بتغذية الأنهار الجارية على سطح الأرض بما يضمن استمرار تدفقها لحفظ الحياة على وجه الكوكب المحظوظ الذى اختارته العناية الآلهية ليكون مستقرًا لنا حتى حين، حيث تسيل المياه من الطبقات السفلى لتلك التيجان الجبلية تحت ضغط تراكم الطبقات العليا، وتشق لأنفسها مجار أو أنهارًا على أجسام الجبال، ينحدر فيها الماء من القمم إلى الوديان، . . حيث يجرى على سطح الأرض ليصب فى الأنهار التى تصب بدورها الماء فى البحار فى حركة مستمرة بين السماء والأرض.

هكذا نرى الماء متجمدًا فى جليد، يكلل هامات جبال النرويج فى أقصى شمال أوروبا، . . حيث تنخفض درجة الحرارة فى الجو على ارتفاع ألف ومائتين متر فقط فوق سطح البحر، ومع التقدم جنوبًا نحو خط الاستواء لا يتجمد الماء على قمم الجبال إلاّ عند مستويات أعلى، فنراه يتوج هامة جبال الألب على ارتفاع ألفين وسبعمائة متر، فإذا تجاوزنا خط الاستواء، وانتقلنا إلى النصف الجنوبى الحار من الكرة الأرضية، فإننا نجد الجليد ناصع البياض يزين رؤوس جبال كليما نجارو فى وسط أفريقيا، القارة السوداء على ارتفاع خمسة آلاف وخمسمائة متر فوق سطح البحر.

ومن ناحية أخرى فإن الرياح الصاعدة عندما تصطدم بأجسام

الجبال الشامخة فإنها ترتد إلى أعلى نحو السماء فى تيارات هوائية صاعدة تحمل نويات التكاثف (أو بذور المطر) فتقذف بها فى أرحام السحب فيولد «الودق» الذى ينهمر من السحاب الثقال على قمم الجبال، ويشق طريقه هابطًا إلى الوديان فى مجار مائية تكونت عبر الزمن هى ما نسميه الأنهار. هكذا نجد للجبال العالية دورًا هامًا فى إمداد البشر بالماء العذب، وهو الدور الذى أشار إليه القرآن الكريم فى قوله ﴿ وَجَعَلْنَا فِيهَا رَوَاسِيَ شَامِخَاتٍ وَأَسْقَيْنَاكُم مَّاءً فُرَاتًا ﴾[1] ألا يدعونا للتأمل أن الجبال هى منابع الأنهار التى يولد أولاً ماؤها العذب فى السماء؟!!

ولا ريب فى أن هذه التيجان الجليدية على رؤوس الجبال، تستحضر فى عقل المتأمل تلك الجبال الجليدية فى المناطق المتجمدة بالقطبين الشمالى والجنوبى، لهذا الكوكب المائى الذى نعيش عليه، حيث تختزن جبال الجليد فى القطبين كميات هائلة من الماء، تكفى لإغراق الكرة الأرضية إلى ارتفاع يزيد على ستين مترًا عند انصهار ذلك الجليد وتحوله إلى ماء سائل تحت تأثير الحرارة، وهو الخطر الذى يحذر منه العلماء منذ اكتشاف تآكل طبقة الأوزون، أو ما يسمى بثقب الأوزون فى أواخر القرن العشرين، وهى الطبقة السفلى من الطبقة متعددة الطوابق Stratosphere التى تلى طبقة التربوسفير، (طبقة التغير الجوى التى يوجد فيها السحاب Troposphere) حيث

(١) سورة المرسلات ـ الآية ٢٧ .

تؤدي الأدخنة الناتجة من ذلك الحرق إلى ارتفاع تدريجي في درجة حرارة جو الأرض يهدد بصهر أو إسالة الماء المتجمد بالقطبين، مما ينذر بإغراق الكرة الأرضية، فيما يمكن تشبيهه بطوفان نوح بسبب إفساد الإنسان للبيئة نتيجة إساءة استعماله لنعلم مصداقًا لقوله - سبحانه وتعالى - ﴿ظهر الفساد في البر والبحر بما كسبت أيدي الناس ليذيقهم بعض الذي عملوا لعلهم يرجعون﴾(١).

ويُعد الماء المتجمد بالقطبين آية كبرى من آيات رحمة الله بالخلائق على الأرض، وذلك لأنه يُظهر الصفة الفريدة التي خص الله بها الماء، وهي أن كثافته في الحالة الصلبة (الماء المتجمد) أقل من كثافته في الحالة السائلة، وهي صفة ينفرد بها هذا المركب الكيميائي المدهش الذي جعله الله وعاءً لسر الحياة، فلولا هذه الصفة التي ينفرد بها الماء من بين جميع عناصر ومركبات الكون، لغاصت جبال الجليد في أعماق المحيطات، ولهلكت الكائنات الحية التي تعيش هناك، ولتوقفت حركة الملاحة البحرية، إذ لا تستطيع السفن والمراكب أن تجري في بحار من الجليد!!

تولد الأنهار من رحم السحب الثقال، وتنزل على الجبال، حيث تتخذ منها منابع ثم تشق طريقها في التربة (الطبقة السطحية لقشرة الأرض)، حيث تروي الأرض، وتستخرج النبات، وتنشئ

---

(١) سورة الروم - الآية ٤

تؤدى الأشعة النافذة من ذلك الثقب إلى ارتفاع تدريجى فى درجة حرارة جو الأرض يهدد بصهر أو إسالة الماء المتجمد بالقطبين، مما ينذر بإغراق الكرة الأرضية، فيما يمكن تشبيهه بطوفان نوح بسبب إفساد الإنسان للبيئة نتيجة إساءة استعماله للعلم مصداقًا لقوله - سبحانه وتعالى - ﴿ ظَهَرَ الْفَسَادُ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِي النَّاسِ لِيُذِيقَهُم بَعْضَ الَّذِي عَمِلُوا لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴾(١).

ويُبْدى الماء المتجمد بالقطبين آية كبرى من آيات رحمة الله بالخلائق على الأرض، وذلك لأنه يُظْهِر الصفة الفريدة التى خص الله بها الماء، وهى أن كثافته فى الحالة الصلبة (الماء المتجمد) أقل من كثافته فى الحالة السائلة، وهى صفة ينفرد بها هذا المركب الكيميائى المدهش الذى جعله الله وعاءً لسر الحياة، فلولا هذه الصفة التى ينفرد بها الماء من بين جميع عناصر ومركبات الكون، لغاصت جبال الجليد فى أعماق المحيطات، ولهلكت الكائنات الحية التى تعيش هناك، ولتوقفت حركة الملاحة البحرية، إذ لا تستطيع السفن والمراكب أن تجرى فى بحار من الجليد!!

تولد الأنهار من رحم السحاب الثقال، وتنزل على الجبال، حيث تتخذ منها منابع ثم تشق طريقها فى التربة؛ الطبقة السطحية لقشرة الأرض، حيث تروى الأرض، وتستخرج النبات، وتُنشىء

---

(١) سورة الروم - الآية ٤٠ .

المجتمعات الإنسانية التى تعتمد على الزراعة، وتنحدر فى النهاية لتصب ماءها فى البحار، حيث يعود إلى السماء بخارًا طاهرًا نقيًا ليولد من السحاب مرة أخرى ماء طهورًا فى سياق دورة مستمرة بين السماء والأرض تجدد الحياة، وما كان لها أن تستمر، لولا أن كتب الله على الأنهار أن تهبط من السماء لتنزل من أعلى الجبال منحدرة إلى أسفل فى الوديان، حتى تصل إلى البحار فهذا الطريق المائل المحكوم بأمر الجاذبية هو ما يضمن استمرار الحياة على وجه الأرض.

لذلك حرص القرآن على أن يقرن الأنهار بالجبال والطرق، وأن يضعها ضمن الإعداد الإلهى لوجه الأرض، ليحمل الكائنات الحية.

يقول الله ـ سبحانه وتعالى ـ ﴿ وَأَلْقَىٰ فِي الأَرْضِ رَوَاسِيَ أَن تَمِيدَ بِكُمْ وَأَنْهَارًا وَسُبُلاً لَّعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ﴿١٥﴾ وَعَلامَاتٍ وَبِالنَّجْمِ هُمْ يَهْتَدُونَ ﴾[١].

سمى الجبال ﴿ رَوَاسِيَ ﴾ لأنها مُثَبِّتَاتٌ، تثبت القشرة الأرضية (الطبقة الخارجية من الأرض) على طبقة الغلاف التى تليها من الداخل، فإن الجبال بمثابة أوتاد دُقت فى القشرة الأرضية لتثبتها فى طبقة الغلاف تحتها، وتربط الكائنات الحية على سطح الأرض بحبال الجاذبية[٢].

---

(١) سورة النحل ـ الآيتين ١٥ - ١٦ .

(٢) انظر باب «نماذج من الإبداع القرآنى» فى كتابنا القرآن معجزة كل العصور، ص ٧٨-٩٥، دار الشعب ـ القاهرة ٢٠٠١ .

ووصف بناء الجبال بأنه «إلقاء» للدلالة على أن مكونات الجبال قد قُذِفَت، أو طُرِحَت لأعلى من باطن الأرض، فى انفجارات بركانية ثم عادت لتهبط وتبرد على سطح الأرض لتنشأ الجبال البركانية، أو أنها قد قذفت، أو طرحت من باطن البحر إلى الشواطئ، وظلت تتراكم فوق بعضها عبر الزمن لتقيم البجال الرسوبية، فلا يوجد لفظ يعبر عن تكوين الجبال بنوعيها أدق أو أحكم من قوله - سبحانه وتعالى - «ألقى» لإن الإلقاء هو الطرح الذى يعنى الإخراج والدفع والتوجيه (أو الإلفات). وحدد هدف إلقاء الجبال بقوله ﴿ أَن تَمِيدَ بِكُمْ ﴾ يعنى حتى لا تميد (تهتز) الأرض بكم أثناء حركتها التى لا تتوقف وعطف الأنهار على الجبال فقال ﴿وَأَنْهَارًا ﴾ فبين أنه يستحيل وجود الأنهار دون وجود الجبال، وأن الأنهار قد ألقيت كما ألقيت الجبال، يعنى قد أُخرجت ودُفعت (حُرِّكت) وَوُجِّهت فقد أُخرجت من السحاب، ودفعت من أعلى الجبال، ووجهت فى الوديان لتنتهى فى البحار، والجاذبية هى الأمر الآلهى الحاكم الذى ضبط حركة جميع الأشياء على الأرض، وعطف السبل على الأنهار فقال ﴿ وَسُبُلاً ﴾ مشيرًا إلى التشابه الشديد بين الأنهار والسبل، فكلٌ منها طرق سلكها الإنسان، الأولى على الماء والثانية على اليابسة ومُلَوِّحًا إلى أن الأنهار كانت السبل التى نشأت على جانبيهَا «القرى» أى المجتمعات الإنسانية الثابتة التى احترفت الزراعة، وأقامت الحضارة

وأنشأت السبل (الطرق) فيما بينها للتجارة وحفظ العمران ﴿ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ﴾: لعلكم تتبينون طريقكم فلا تضلوا. .

والجبال والأنهار والسبل وكل ما على الأرض من أشياء تُعَيِّن المواضع إنما هى «علامات» أى آيات ودلائل تهدى السائر فى النهار عند وجود ضوء الشمس منتشرًا فى الهواء، أما فى الليل عندما تغيب الشمس وتحتجب علامات الأرض، فإن الله قد وضع على صفحة السماء علامات أخرى هى النجوم لتهدى السائر فى الظلام.

وللهداية وجهان، الأول ظاهر، وهو بيان طرق الأرض، والمعونة على السير فيها بغية الوصول إلى المنافع الدنيوية والآخر باطن: وهو إضاءة طرق الوصول إلى الله، . . ومن ثم فإن النجم نجمان؛ الظاهر نجم السماء المتألق فى الظلام، والباطن نجم الله؛ السراج المنير الذى أوقده الله ليهدى الحائرين والسائرين من الخلائق إلى الخالق.

ونهاية سير النهر، الوصول إلى البحر، وعند اللقاء بين الماء العذب والماء الملح تتبدى بعض آيات ربك الذى يقول ممجدًا نفسه ﴿ وَهُوَ الَّذِي مَرَجَ الْبَحْرَيْنِ ﴾[1] يعنى أنه - سبحانه وتعالى - وحده وليس أحد غيره الذى أجرى البحرين؛ يحركهما على الدوام واضعًا فيهما قوى دافعة للحركة، فلا يتوقف جريهما أبدًا بتأثير جذب الأرض، وجذب القمر لماء المحيطات والبحار الذى يحدث المد

(١) سورة الفرقان - الآية ٥٣ .

والجذر، والرياح صانعة الأمواج على السطح، وتيارات الحمل الحرارية خالقة الأمواج فى الأعماق، وغيرها من القوى التى لا يعلمها إلاّ الله. فما هما البحران المقصودان فى هذا المقام؟

البحر هو الماء الكثير المجتمع، أو بكلمات أخرى تجمع مائى كبير، وهو تعريف ينطبق على ما اعتدنا تسميته «الأنهار» التى تحوى الماء العذب، وعلى البحار التى تمتلئ بالماء المِلح، وإذا كنا قد اصطلحنا على تسمية التجمعات المائية الكبيرة التى تمتلى بالماء الملح «بحارًا» فذلك يرجع إلى اتساعها البالغ وضخامة ما تحويه من ماء بالمقارنة مع المجارى المائية ذات الماء العذب، ومن ثم فإن حاويات الماء المِلح أكثر تحقيقًا لمعنى البحر لغةً، فاستحقت الاسم لكن القرآن هو اللسان العربى المبين[١] فهو إذن أصل اللغة العربية ولذلك يُعيدنا إلى الأساس فيفسر «البحرين» بقوله ﴿ **هَذَا عَذْبٌ فُرَاتٌ** ﴾[٢] ويفسر معنى «فرات» بقوله فى سورة فاطر ﴿**سائغ شرابه** ﴾[٣] هذا هو البحر الأول أما الثانى فيشير إليه بقوله ﴿ **وَهَذَا مِلْحٌ أُجَاجٌ** ﴾[٤] وأصبح معنى «أجاج» واضحًا بمفهوم المخالفة لا يحتاج إلى تفسير.

---

(١) المبين وصف يعنى تحقق الصفة فى الموصوف على نحو تام مؤكد لا يجادل فيه أحد.
(٢) سورة الفرقان ـ الآية ٥٣، سورة فاطر الآية ١٢ .
(٣) سورة فاطر الآية ١٢ [هذا عذب فرات سائغ شرابه].
(٤) سورة الفرقان الآية ٥٣، سورة فاطر الآية ١٢ .

ولكن الحركة المستمرة للبحرين تحثهما وتدفعهما للإلتقاء، لأنهما ابنان لكائن واحد، أو شقيقان من نسل ماء واحد، فلابد أن يجتمعا لذلك قال فى سورة الرحمن ﴿ مَرَجَ الْبَحْرَيْنِ يَلْتَقِيَانِ ﴾[1] ولكنهما مختلفان فى صفاتهما وطباعهما، ومن ثم فقد يبغى أحدهما على الآخر عندما يجمعهما مكان واحد، كما يفعل الأشقاء من أبناء آدم بدءًا من قابيل وهابيل. لذلك أقام الله بين البحرين «حاجزًا» ليلزم كل منهما حده، أى حد الحاجز المقام بينهما، فلا يتجاوزه، وهو ما يعنى أن كل بحر يقف عند الحد أو الوجه الذى يقابله من الحاجز وعَدَّ الله إقامة هذا الحاجز بين البحرين إحدى بدائع صنعه، وقرنها بإعطاء الكوكب الأرضى قوة الجاذبية التى جعلت منه مسكنًا وقرارًا للكائنات الحية، وبإنشاء الأنهار والجبال التى تحفظ الحياة على وجه الأرض، وذلك فى قوله (سبحانه وتعالى) ﴿ أَمَّن جَعَلَ الأَرْضَ قَرَارًا وَجَعَلَ خِلالَهَا أَنْهَارًا وَجَعَلَ لَهَا رَوَاسِيَ وَجَعَلَ بَيْنَ الْبَحْرَيْنِ حَاجِزًا أَإِلَهٌ مَّعَ اللَّهِ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لا يَعْلَمُونَ ﴾[2]. يتساءل لينبه القلوب الغافلة عن آيات الله فى الأرض، ويحفز الأفئدة (العقول) لطلب العلم، ويوبخ المشركين الذين يجعلون معه ـ سبحانه وتعالى ـ آلهة أخرى من صنع أوهامهم، يوبخهم على غفلتهم وجهلهم وعنادهم، وليبين أن هذا

---

(١) سورة الرحمن ـ الآية ١٩ .

(٢) سورة النمل ـ الآية ٦١ .

الحاجز بين البحرين إنما أقامه ـ سبحانه وتعالى ـ ليحفظ الحياة على وجه الأرض، فلولاه لاختلط الماء فى البحرين اختلاطًا تامًا، ويؤدى هذا الاختلاط بالضرورة إلى ضياع عذوبة ماء الأنهار الذى يحيا عليه البشر والدواب والأشجار، لأن الأملاح الكثيرة فى مياه البحار ستسرى إلى الأنهار بقوة ضغط التركيز أو الضغط الإسموزى Osmotic pressure بين السوائل، ويؤدى ذلك حتمًا إلى هلاك الكثير من صور الحياة على اليابسة.

ولكن هذا الحاجز ليس بناءً مرئيًا ملموسًا تراه الأعين، وتلمسه الأيدى، وإنما هو «برزخ» يماثل البرزخ بين الدنيا والآخرة، أعنى ذلك المقام أو تلك المنطقة من الوجود التى تلتقى فيها أنفس النائمين والموتى، وتترآى على سطحها الرؤى والأحلام... إنها الحاجز أو المنطقة الوسط العازلة بين الشهادة والغيب.

يقول الله ـ سبحانه وتعالى ـ مفسرًا «الحاجز» بين البحرين: ﴿ وَجَعَلَ بَيْنَهُمَا بَرْزَخًا ﴾(1) وحدد عمل هذا البرزخ بقوله ﴿ بَيْنَهُمَا بَرْزَخٌ لاَّ يَبْغِيَانِ ﴾(2) و «البغى» مجاوزة الحد.

وقوله ﴿لاَّ يَبْغِيَانِ ﴾ يعنى لا يجاوزان حد الحاجز الذى وُضِعَ بينهما فكل واحد منهما يقف عند الحد أو الوجه الذى يقابله من

(1) سورة الفرقان ـ الآية ٥٣ .

(2) سورة الرحمن ـ الآية ٢٠ .

الحاجز، ولذلك نفى البغى عنهما معًا أى عن كليهما ولا يُعْقَلُ أن يبغى الماء العذب الفرات (النهر) على الماء الملح الأجاج (البحر).

و «البرزخ» - إذًا - هو منطقة عازلة من الماء تقوم حاجزًا بين البحرين؛ الماء العذب الفرات (النهر) من ناحية أو على جهة والماء الملح الأجاج (البحر) على الجهة الأخرى فهو منطقة وسط بين البحرين، وهى وسط فى المكان، ووسط فى الملوحة، فإنها تحتوى على ماء قليل الملوحة أى ماء «مويلح» تزيد نسبة الأملاح فيه على ما يوجد فى الماء العذب، ولكنها تقل عما يوجد فى الماء الملح، ويمثل هذا البرزخ منطقة الانتقال من العذب إلى الملح، كما يمثل برزخ الحياة مرحلة الانتقال بين الشهادة والغيب!!

وههنا يبدى الماء إحدى عجائبه التى خصها الله به، فهذا السائل المدهش الذى يعد بحق أقوى مذيب فى الكون، والذى يستطيع أن يذيب أقسى الصخور، هذا السائل لا يختلط مع بعضه عند التقاء البحرين، بل يظل كل بحر أو كل ماء محتفظًا بكيانه، منفصلاً عن شقيقه، لا يذوب فيه وربما يرجع هذا الحاجز أو البرزخ إلى «تأين» الأملاح الذائبة فى كل نوع من الماء، فتصطف الشحنات الكهربية السالبة أو الموجبة على حواف منطقة من الماء لتتنافر مع الشحنات المماثلة على حواف المنطقة المجاورة، ومن ثم يمنع هذا التنافر الكهربى الامتزاج بين المائين.

ولكل نوع من الماء الكائنات الحية التى تستطيع أن تعيش فيه، والتى تموت إذا غادرته إلى نوع آخر، فالماء العذب له أنواع من الأسماك، والكائنات المائية التى لا تستطيع الحياة فى الماء الملح، فلو اخترقت هذه الأنواع الحاجز وانتقلت إلى «البرزخ» ماتت كما تموت النفس الإنسانية إذا انتقلت أو «أُمسكت» فى البرزخ.

وللبرزخ بين البحرين أيضًا كائناته التى لا تستطيع أن تعيش فى الماء الملح، ولا فى الماء العذب، فهذا البرزخ إذن «حِجْرٌ» على طائفة خاصة من الكائنات المائية، فهو حرم آمن لها لا يستطيع غيرها أن يقتحمه، أو أن ينفذ إليه، وإلاّ مات فهو إذًا ﴿ مَّحْجُورٍ ﴾ (مغلق) عليها وحدها ممنوع أو محرم على غيرها، ولذلك وصفه الله بقوله ﴿ وَجَعَلَ بَيْنَهُمَا بَرْزَخًا وَحِجْرًا مَّحْجُورًا ﴾(١) أى حرمًا آمنًا مغلقًا على ما فيه من الكائنات، فى إشارة إلى أن البرزخ بين البحرين إنما يعد بيئة حيوية خاصة مغلقة على طائفة من الأسماك والكائنات الحية التى لا تستطيع أن تعيش خارجه، أى خارج هذا الحجر أو الَحرَم كما لا تستطيع الطوائف الأخرى من الكائنات أن تنفذ إليه، فهو محجور (مغلق) على كائناته فقط، ممنوع أو محرم على غيرها لأنه بالنسبة للغير «برزخ» يموت فيه!!!

وفى الآية تلويح إلى تعدد البحار، أى أنواع الماء فى نفس المكان،

---

(١) سورة الفرقان ـ الآية ٥٣ .

فالبحر الواحد يتضمن فى الحقيقة عدة بحار، أو عدة بيئات مائية تتجاور مع بعضها فى نفس المكان أفقيًا ورأسيًا، ولكل منها كائناتها الخاصة.

إن الله - سبحانه وتعالى - قد كَرَّم بنى آدم وفضلهم على كثير من خلقه، ومن فيض كرمه لم يُحَرِّمْ علينا أى نوع من البحار، بل أباح لنا البحار كلها وسخرها لنا جميعًا، وأحل لنا أكْلَ ما فيها.

يقول ﴿ وَمَا يَسْتَوِي الْبَحْرَانِ هَذَا عَذْبٌ فُرَاتٌ سَائِغٌ شَرَابُهُ وَهَذَا مِلْحٌ أُجَاجٌ وَمِن كُلٍّ تَأْكُلُونَ لَحْمًا طَرِيًّا وَتَسْتَخْرِجُونَ حِلْيَةً تَلْبَسُونَهَا وَتَرَى الْفُلْكَ فِيهِ مَوَاخِرَ لِتَبْتَغُوا مِن فَضْلِهِ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴾(١).

ويقول ﴿ وَهُوَ الَّذِي سَخَّرَ الْبَحْرَ لِتَأْكُلُوا مِنْهُ لَحْمًا طَرِيًّا وَتَسْتَخْرِجُوا مِنْهُ حِلْيَةً تَلْبَسُونَهَا وَتَرَى الْفُلْكَ مَوَاخِرَ فِيهِ وَلِتَبْتَغُوا مِن فَضْلِهِ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴾(٢).

يعدد الله بعض نعمه علينا بتسخير البحر، وسنقف هنا وقفة

---

(١) سورة فاطر - الآية ١٢ .

(٢) سورة النحل - الآية ١٤ .

عندما يقول الله فى الآية (١٢) من سورة فاطر «لتبتغوا من فضله» ويقول فى الآية (١٤) من سورة النحل «ولتبتغوا من فضله» فإنما يبرهن على أن محمد ﷺ كان يتلقى القرآن سماعًا ويبلغه كما سمعه دون أن يملك إضافة أو حذف حرف واحد فالفرق بين الآيتين مجرد حرف «و»!!! وقوله فى الآية الأولى «وترى الفلك فيه مواخر» وفى الآية الثانية «وترى الفلك مواخر فيه»!!!

قصيرة عند موضعين فقط من مواضع النظر: الأول أن القرآن يساوى بين الأكل (اللحم الطرى)؛ طعام الجسم والزينة (لبس الحُلى)؛ طعام القلب فى إشارة بليغة إلى أهمية «الجَمال» فى تربية النفس الإنسانية باعتبار أن الجمال يذكرنا بالجنة، فالشىء الجميل هو النافذة التى نتطلع منها إلى جنة الرب التى كنا فيها قبل الدنيا فهو تذكرة الدخول إلى عالم الخلود.

الثانى قوله فى الآيتين ﴿ وَتَرَى الْفُلْكَ مَوَاخِرَ فِيهِ ﴾ قاطعًا السياق بتوجيه الخطاب إلى النبى ﷺ الذى يتلقى هذا القرآن، والذى لم ير طيلة حياته البشرية منذ ولادته من رحم آمنة بمكة إلى دفن جثمانه الشريف فى المدينة المنورة (يثرب) أية سفينة ولم يذهب إلى أى بحر، وهى إشارة بليغة إلى أنه «يرى» بقوة غير بشرية إذ يرى بروح الله.

ويعد تسخير البحر لخدمة الإنسان، أحد مظاهر التكريم الإلهى للبشر، أبناء آدم - عليه الصلاة والسلام - وتسيير السفن لنقل البشر والبضائع، واستخراج الثروات الهائلة التى كنزها الله فى البحار، هو أهم مظاهر ذلك التسخير، ولذلك يمن الله علينا بتلك النعم، راجيًا أن تحثنا على الشكر ﴿ اللَّهُ الَّذِي سَخَّرَ لَكُمُ الْبَحْرَ لِتَجْرِيَ الْفُلْكُ فِيهِ بِأَمْرِهِ وَلِتَبْتَغُوا مِن فَضْلِهِ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴾[1].

﴿ بِأَمْرِهِ ﴾: بقوله النازل إلى البحر يأمره بحمل الفلك وتسييرها،

---

(١) سورة الجاثية - الآية ١٢ .

وقانون الطفو الذى يقضى بألاّ يغوص من السفينة إلاّ المقدار الذى يكفى لإزاحة وزن من الماء مساو لوزن السفينة هو أحد أوجه ذلك الأمر الإلهى بالتسخير، ولولا هذا القانون الإلـهى ما استطاع الإنسان أن يركب البحار، ولا أن يبنى السفن التى يبتغى بها من فضل الله!!!

ويقول (سبحانه وتعالى): ﴿ وَمِنْ آيَاتِهِ أَن يُرْسِلَ الرِّيَاحَ مُبَشِّرَاتٍ وَلِيُذِيقَكُم مِّن رَّحْمَتِهِ وَلِتَجْرِيَ الْفُلْكُ بِأَمْرِهِ وَلِتَبْتَغُوا مِن فَضْلِهِ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴾[١].

هنا يربط الله بين إرسال الرياح المثيرة للمطر، وبين جرى السفن، فى إشارة إلى أن الرياح هى القوة المحركة للسفن، ولم يذكر هنا البحر مكتفيًا بالإشارة إلى المطر فى قوله ﴿ رَّحْمَتِهِ ﴾ التى يقصد بها ماء السماء مُلَوِّحًا إلى أن المحيطات والبحار التى تجرى فيها السفن قد تكونت فى بداية الخلق من هطول المطر لزمن طويل عندما بردت قشرة الأرض، حتى ملأ الماء المنخفضات الهائلة التى نشأت من بناء (إلقاء) الجبال، وذلك عند إعداد سطح الأرض وتهيئة قشرتها لحمل الكائنات الحية. إنها الحقيقة التى أشار إليها فى قوله (سبحانه وتعالى) ﴿ وَمِنْ آيَاتِهِ الْجَوَارِ فِي الْبَحْرِ كَالأَعْلامِ ﴾[٢].

---

(١) سورة الروم ـ الآية ٤٦ .

(٢) سورة الشورى ـ الآية ٣٢ .

﴿ الأَعْلامِ ﴾: جمع عَلَم وهو الجبل و «الجوار فى البحر» هى السفن، فشبه السفن التى تجرى فى البحر (الماء)، بالجبال، وهو تشبيه مدهش، بل مذهل، يتضمن عددًا من الحقائق العلمية منها أن سطح الكرة الأرضية أغلبه ماء، وأن الجبال (الأعلام) تبرز بقاماتها فوقه بروز السفن فوق سطح الماء، وهى تمخر عباب البحر، وهو مشهد لا يمكن أن يراه إلاّ من ينظر إلى الكوكب الأرضى من فوق، أى من جهة السماء، بشرط أن يكون على ارتفاع كاف يمكنه من رؤية الغلاف المائى للأرض الذى يشكل أكثر من ٧٠٪ من مساحة مسطحها ومن هناك؛ من السماء تبدو الجبال كسفن تجرى فى البحر، إنه مشهد يشبه الصور التى ترسلها الأقمار الصناعية لكوكب الأرض(١).

وأن للجبال جزءًا كبيرًا من أجسامها يختفى أو «يغطس» تحت سطح الأرض يماثل الجزء» الغاطس» من السفن، وأخيرًا وليس آخرًا أن الجبال قد أُلقيت فى الأرض و «أرسيت» مع نزول الماء الكثير المتجمع فى المنخفضات التى تولدت على سطح الأرض من ارتفاع الجبال، ويصبح مفهومًا الآن أن الجبال قد «أُنشئت فى البحر» كما تُنْشأ «الجوار» (السفن)، لأن البحر كما قلنا هو الماء الكثير المجتمع

---

(١) أنظر كتابنا «القرآن معجزة كل العصور».

فى مكان واحد، وقد صرح بهذه الحقيقة المبهرة فى قوله: ﴿ وَلَهُ الْجَوَارِ الْمُنشَآتُ فِى الْبَحْرِ كَالأَعْلامِ ﴾[1] واللام فى قوله «له» هى لام الملكية، لأن السفن الجارية فى البحر لا تنسب إلاّ إليه فهو - سبحانه وتعالى - الذى علم الإنسان صناعة أو بناء السفن على يد نبيه نوح - عليه الصلاة والسلام - صانع أول سفينة، وهو الذى أمد الإنسان بالمواد التى يبنى بها السفن، وبالعلم وهو الذى يسيرها فى البحر بقانون الطفو وقوة الرياح. وهى أيضًا «لام» الصيرورة لأن كل ما فى السماوات والأرض تأخذهم حركة مستمرة تُرْجِعُ الجميع إلى الله خالقهم.

وإلى قوة الريح فى تسيير السفن أشار الله بقوله ﴿ إِن يَشَأْ يُسْكِنِ الرِّيحَ فَيَظْلَلْنَ رَوَاكِدَ عَلَىٰ ظَهْرِهِ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ ﴾[2].

﴿ يُسْكِنِ الرِّيحَ ﴾ يجعل الريح ساكنة، بمعنى أن سرعة حركة الهواء تقارب الصفر، وهنا نجد أن الدخان يتصاعد رأسيًا (عموديًا) إلى أعلى، إذ لا توجد ريح تحركه يمينًا أو يسارًا ويبدو سطح البحر ساكنًا مصقولاً كأنه مرآة، ولا أمل إذن للسفن فى أن يدفعها الهواء «فيظللن رواكد» على ظهر البحر، أو سطح الماء بقانون الطفو،

(١) سورة الرحمن - الآية ٢٤ .
(٢) سورة الشورى - الآية ٣٣ .

وليس أمام الإنسان حينئذ إلاّ أن يتضرع إلى الله أن يبعث بريح طيبة تدفع السفن للجرى فى البحر الذى سيهتز سطحه بموجات لطيفة هادئة. فى مثل هذا الموقف المتأزم، مقام سكون الريح، وركود السفينة لا ينفع الإنسان إلاّ الكثير من الصبر الذى يعينه على تجاوز المحنة، ولن يحصل على الصبر إلاّ إذا كان كثير الشكر، لأن تذكر نعم الله والإقرار بها وحمده عليها - وهذا هو مضمون الشكر - هو ما يعين الإنسان على تحمل المشقة والألم دون أن يهوى إلى السخط، فيقذف لسانه بحمم الشكوى والتذمر، وهذا هو مضمون الصبر؛ تحمل الألم دون إظهار للسخط، لذلك قال الله فى ختام الآية ﴿ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ ﴾[1] فإذا لم يصبر الإنسان، ولم يشكر بل سخط وتذمر، فما هى ثمرة سخطه وتذمره؟!! إنه لن يستطيع تغيير ما أقامه الله فيه بل إنه - سبحانه وتعالى - يهدده بما هو أسوأ فيقول:

﴿أَوْ يُوبِقْهُنَّ بِمَا كَسَبُوا وَيَعْفُ عَن كَثِيرٍ﴾[2].

﴿ يُوبِقْهُنَّ ﴾: يهلكهن والمقصود هنا يغرقهن.

﴿ بما كَسَبُوا ﴾: بسبب أعمالهم السيئة، يعنى عقابًا على ذنوبهم،

---

(١) سورة الشورى - الآية ٣٣ .

(٢) سورة الشورى - الآية ٣٤ .

ولكن الله رحمن رحيم، لذلك قال ﴿ ويعفُ عن كثير ﴾ يترك عقابه على الكثير من الذنوب متنازلاً عن حقه فى معاقبة المخطئ من عباده لأنه - سبحانه وتعالى - عفو.

وربما يتوهم الإنسان المعاصر - فى بداية القرن الحادى والعشرين - أن هذه الآية قد مضى زمانها، لأن السفن الآن لا تتحرك بقوة الريح التى تضرب أشرعة السفن لتدفعها للسير فى البحر، لأن السفن تتحرك الآن باحتراق الوقود (البترول) أو الوقود النووى، فما الذى يوقفها إذا سكن الريح؟!!

والإجابة أن الريح إذا سكنت توقفت كل السفن مهما كان الوقود الذى تستخدمه، وذلك لأن آلات الاحتراق الداخلى فى محركات السفن تعتمد فى إتمام الاحتراق وتوليد الطاقة على وجود غاز الأكسجين فى الهواء، ولا يمكن تصور وجود هذا الغاز الهام فى الغلاف الجوى للأرض إلاّ بوجود النبات (الشجر) الذى يواصل إمداد الغلاف الجوى بالأكسجين عبر عملية التمثيل الضوئى التى يمتص فيها النبات غاز ثانى أكسيد الكربون من الجو وفى وجود الضوء (النور والحرارة) يقوم بتكوين غذائه وإطلاق غاز الأكسجين الذى يعود إلى الهواء ولولا هذا العمل الهام لنفذ الأكسجين من الغلاف الجوى للأرض باستهلاك البشر والدواب له فى التنفس ولو نفذ الأكسجين توقفت جميع آلات الاحتراق الداخلى للمحركات حتى التى تعمل بالوقود النووى. ولا يمكن تصور وجود النبات (الشجر) ليؤدى هذا

العمل الهام لمحركات جميع الآلات بما فيها محركات السفن التى تجرى فى البحر دون وجود المطر؛ ماء السماء الذى يُخرِجُ النبات من الأرض، ولا يمكن تصور نزول المطر دون وجود الريح التى تثير السحاب وتلقحه بنويات التكاثف.

فحركة الريح إذن ضرورية لتحريك جميع السفن حتى تلك التى تسير بالوقود النووى، فالآية القرآنية الجميلة لم تزل قادرة على مخاطبة الإنسان فى بداية القرن الحادى والعشرين، وحتى نهاية الكون بقيام الساعة. لذلك ربط الله بين إرسال الرياح مثيرة المطر وإجراء الفلك ﴿ وَمِنْ آيَاتِهِ أَن يُرْسِلَ الرِّيَاحَ مُبَشِّرَاتٍ وَلِيُذِيقَكُم مِّن رَّحْمَتِهِ وَلِتَجْرِيَ الْفُلْكُ بِأَمْرِهِ وَلِتَبْتَغُوا مِن فَضْلِهِ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴾(١) والخلاصة أن إرسال الرياح وإنزال المطر وإنبات الشجر لازم لتسيير الفلك حتى التى تسير بالبترول والطاقة النووية، وصدق الله العظيم الذى لم يزل يقول ﴿ إِن يَشَأْ يُسْكِنِ الرِّيحَ فَيَظْلَلْنَ رَوَاكِدَ عَلَىٰ ظَهْرِهِ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ ﴾(٢).

ولكن الإنسان كثير الجدال، شديد العناد، عظيم الميل إلى التمرد، قليل الشكر، لا يعرف الله ولا يذعن إلى الحق إلاّ عندما يضيق حوله الخناق، ويظن أنه لا محالة هالك. وصف الله أحوالنا معه - سبحانه

---

(١) سورة الروم - الآية ٤٦ .

(٢) سورة الشورى - الآية ٣٣ .

وتعالى - فقال: ﴿ هُوَ الَّذِي يُسَيِّرُكُمْ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ حَتَّىٰ إِذَا كُنتُمْ فِي الْفُلْكِ وَجَرَيْنَ بِهِم بِرِيحٍ طَيِّبَةٍ وَفَرِحُوا بِهَا جَاءَتْهَا رِيحٌ عَاصِفٌ وَجَاءَهُمُ الْمَوْجُ مِن كُلِّ مَكَانٍ وَظَنُّوا أَنَّهُمْ أُحِيطَ بِهِمْ دَعَوُا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ لَئِنْ أَنجَيْتَنَا مِنْ هَٰذِهِ لَنَكُونَنَّ مِنَ الشَّاكِرِينَ (٢٢) فَلَمَّا أَنجَاهُمْ إِذَا هُمْ يَبْغُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّمَا بَغْيُكُمْ عَلَىٰ أَنفُسِكُم مَّتَاعَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ثُمَّ إِلَيْنَا مَرْجِعُكُمْ فَنُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴾[1].

سنلفت النظر إلى استثناء النبى الأمى ﷺ المخاطب بهذا القرآن من جملة الناس راكبى الفلك الذين يبغون فى الأرض بغير الحق عندما تتم لهم النجاة، وذلك بتغيير ضمير المُخاطب الجمع إلى ضمير الجمع الغائب، فقال ﴿وَجَرَيْنَ بِهِم﴾ ولم يقل «جرين بكم» حتى لا يضع النبى المخاطب بالقرآن فى جملة هؤلاء الناس!!!

ونلفت النظر إلى قوله ﴿ إِلَيْنَا مَرْجِعُكُمْ ﴾ الذى يفيد أننا كنا عنده قبل الدنيا، وسنرجع إليه عند الآخرة!!!

يخاطب الله وجدان الإنسان، لعل قلبه يرق ويخشع لما نزل من الحق، فيصور - سبحانه وتعالى - رحمته يدًا تدفع السفن فى البحر ليساعد البشر على الظفر بما أودع الله فيه من الكنوز، ﴿ رَّبُّكُمُ الَّذِي يُزْجِي لَكُمُ الْفُلْكَ فِي الْبَحْرِ لِتَبْتَغُوا مِن فَضْلِهِ إِنَّهُ كَانَ بِكُمْ رَحِيمًا (٦٦)

(١) سورة يونس - الآية ٢٢ - ٢٣ .

وَإِذَا مَسَّكُمُ الضُّرُّ فِي الْبَحْرِ ضَلَّ مَن تَدْعُونَ إِلاَّ إِيَّاهُ فَلَمَّا نَجَّاكُمْ إِلَى الْبَرِّ أَعْرَضْتُمْ وَكَانَ الإِنسَانُ كَفُورًا ﴾(١).

أنظر إلى قوله ﴿ ضَلَّ مَن تَدْعُونَ إِلاَّ إِيَّاهُ ﴾ الذى يبين زوال الأوهام وانقشاع غيوم الضلالات عند احتدام الأزمات، حيث يجد الإنسان نفسه أمام الموت وجهًا لوجه!!! ولكن ما أسرع أن ينسى الإنسان ضعفه، ويعود إلى الكبرياء، ويعاود العناد، لذلك نستحق أن يهدنا الله. ﴿ أَفَأَمِنتُمْ أَن يَخْسِفَ بِكُمْ جَانِبَ الْبَرِّ أَوْ يُرْسِلَ عَلَيْكُمْ حَاصِبًا ثُمَّ لا تَجِدُوا لَكُمْ وَكِيلاً (٦٨) أَمْ أَمِنتُمْ أَن يُعِيدَكُمْ فِيهِ تَارَةً أُخْرَىٰ فَيُرْسِلَ عَلَيْكُمْ قَاصِفًا مِّنَ الرِّيحِ فَيُغْرِقَكُم بِمَا كَفَرْتُمْ ثُمَّ لا تَجِدُوا لَكُمْ عَلَيْنَا بِهِ تَبِيعًا ﴾(٢) «حاصبًا»: ريحًا برية شديدة جافة تحمل الأتربة والرمال والحصب، أى الحجارة وتضرب بها من يعترض طريقها.

﴿ قَاصِفًا مِّنَ الرِّيحِ ﴾: ريحًا شديدة تبلغ قوتها حد تكسير (قصف) الأشجار، ومن ثم يمكنها أن تقلب السفن لأنها تسبب أمواجًا عالية.

﴿ثُمَّ لا تَجِدُوا لَكُمْ عَلَيْنَا بِهِ تَبِيعًا ﴾: ومحال أن تظفروا بأولياء لكم

(١) سورة الإسراء - الآيتين ٦٦-٦٧ .

(٢) سورة الإسراء - الآيتين ٦٨-٦٩ .

يطالبون بثأركم والإنتقام منا وأنتم غرقى فى البحر الذى يبتلعكم فى أعماقه المظلمة!!!

﴿ اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ وَأَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجَ بِهِ مِنَ الثَّمَرَاتِ رِزْقًا لَّكُمْ وَسَخَّرَ لَكُمُ الْفُلْكَ لِتَجْرِيَ فِي الْبَحْرِ بِأَمْرِهِ وَسَخَّرَ لَكُمُ الأَنْهَارَ (٣٢) وَسَخَّرَ لَكُمُ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ دَائِبَيْنِ وَسَخَّرَ لَكُمُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ (٣٣) وَآتَاكُم مِّن كُلِّ مَا سَأَلْتُمُوهُ وَإِن تَعُدُّوا نِعْمَتَ اللَّهِ لا تُحْصُوهَا إِنَّ الإِنسَانَ لَظَلُومٌ كَفَّارٌ ﴾(١).

والسؤال لماذا يصر الكافرون على إنكارهم وجحودهم، ولا يستجيبون أبداً لنداء الوحى الذى يحمله هذا القرآن! والإجابة لأن الوحى (القرآن) نور انبعث من الله ولا يستجيب للنور إلاّ المبصرون، أما العميان فإن أعينهم لا تعرف النور، ولا يمكنها تمييزه، ومن ثم فإنهم لا يستطيعون الاستجابة له، والكافرون قلوبهم عمياء تعجز عن الاستجابة للنور فهم كما وصفهم الله ﴿ وَالَّذِينَ كَفَرُوا أَعْمَالُهُمْ كَسَرَابٍ بِقِيعَةٍ يَحْسَبُهُ الظَّمْآنُ مَاءً حَتَّىٰ إِذَا جَاءَهُ لَمْ يَجِدْهُ شَيْئًا وَوَجَدَ اللَّهَ عِندَهُ فَوَفَّاهُ حِسَابَهُ وَاللَّهُ سَرِيعُ الْحِسَابِ ﴾(٢).

هنا يصف الله أعمالهم التى يتوهمون أنها تحقق ذواتهم، وتُبَلِّغَهُم

(١) سورة إبراهيم ـ الآيات ٣٢ - ٣٤ .
(٢) سورة النور ـ الآية ٣٩ .

أهدافهم، أما هم أنفسهم أى ذواتهم فتصفهم الآية الآتية ﴿ أَوْ كَظُلُمَاتٍ فِي بَحْرٍ لُجِّيٍّ يَغْشَاهُ مَوْجٌ مِّن فَوْقِهِ مَوْجٌ مِّن فَوْقِهِ سَحَابٌ ظُلُمَاتٌ بَعْضُهَا فَوْقَ بَعْضٍ إِذَا أَخْرَجَ يَدَهُ لَمْ يَكَدْ يَرَاهَا وَمَن لَّمْ يَجْعَلِ اللَّهُ لَهُ نُورًا فَمَا لَهُ مِن نُّورٍ ﴾(١).

﴿ بَحْرٍ لُّجِّيٍّ ﴾ بحر واسعٌ لا يُدْرَكُ طرفاه، عميق لا يُدْرَكُ قعره، فهو ما نسميه البحر المحيط مثل المحيطات الأطلسى والهندى والهادى التى يبلغ عمقها فى المتوسط ما يقارب أربعة آلاف متر (٤ كم)، وإن كان بعضها مثل المحيط الهادى يبلغ عمقه فى أقصى المواضع انخفاضاً ما يناهز أحد عشر ألف متر (١١كم).

ومن المعلوم أنه لا ينفذ إلى الطبقات الدنيا للغلاف الجوى إلى ارتفاع مائتى كيلو متر فوق سطح الأرض إلا ما يساوى ٥١٪ فقط من ضوء الشمس الواصل إلى الأرض ويتم تشتيت الباقى (٤٩٪) خارج هذا النطاق، ولذلك فإن «النهار» لا يُعرف إلاّ فى الطبقات الدنيا من الغلاف الجوى للأرض حتى ارتفاع مائتى كيلو متر، أما فوق هذا المستوى فإن الظلام يعم ويسود، فالسماء فى ليل مستمر أى ظلام دائم ودامس.

وعندما يصل ضوء الشمس إلى سطح البحر، فإن الأمواج

---

(١) سورة النور - الآية ٤٠ .

السطحية التى تتحرك بفعل الرياح، تقوم بعكس أو رد جزء منه إلى طبقة الهواء الملامس لسطح الماء، وينفذ الباقى إلى داخل البحر الذى تقوم مياهه بعمل المخروط الزجاجى، فتحلل ضوء الشمس الأبيض إلى أطيافه السبعة؛ الأحمر والبرتقالى والأصفر والأخضر والأزرق والنيلى والبنفسجى، ويمتص الماء هذه الأطياف بالترتيب المذكور كلما نزلنا أو تعمقنا داخل البحر، فأول الأطياف امتصاصًا هو الأحمر ويُمْتَصُ خلال العشرة أمتار الأولى من عمق البحر، ومن ثم فإن اللون الأحمر لا يُعرف أو لا يُرى بعد عشرة أمتار داخل مياه البحر ثم يختفى اللون البرتقالى، فالأصفر، فالأخضر، فالأزرق، الذى يستمر فى الظهور حتى عمق يقارب مائتى متر، وهو العمق الذى يطلق عليه طبقة الضوء، أى العمق الذى تكون فيه الرؤية ممكنة ولذلك يبدو البحر باللون الأزرق، وتبدو الكرة الأرضية بهذا اللون عندما ينظر إليها من فوق، ولذلك استحقت بسبب الماء إسم الكوكب الأزرق.

بعد هذا العمق (مائتى متر) لا يتبقى من ضوء الشمس النافذ إلى البحر إلاّ أقل القليل، فتصير الرؤية عسيرة وتزداد صعوبة، أى يزداد البحر ظلامًا كلما هبطنا فى العمق حتى نصل إلى مستوى ألف متر (١ كم) تحت مستوى البحر، فتواجهنا أمواجًا عاتية تفوق فى قوتها وارتفاعها وأطوال موجاتها الأمواج السطحية مئات المرات، هذه

الأمواج العميقة اكتشفت عام ١٩٥٥م ويُفسر حدوثها بتأثير جاذبية القمر، وما يتولد عنها من المد والجزر، وكذلك بتأثير تيارات الحمل الحرارية المنبعثة فى أعماق المحيطات، وتقوم هذه الأمواج العميقة التى تحدث داخل البحر بعكس البقية القليلة من ضوء الشمس إلى أعلى، أى نحو السطح وتمنع نفاذها إلى أسفل نحو العمق، وبذلك يتبين لنا أن العمق من ٢٠٠ إلى ١٠٠٠ متر هو طبقة الظل أو الضوء الضعيف، حيث تكاد الرؤية أن تكون مستحيلة أما أعمق من ١٠٠٠ متر وتحت مستوى الأمواج العميقة فالبحر اللجى ظلام دامس لا يُرى فيه شىء إذ لا يصل إليه أى نور.

وكان المتصور أن تلك الأعماق المظلمة من المحيطات تنعدم فيها الحياة، حيث ظن العلماء استحالة وجود كائنات حية تعيش فى مثل هذا الظلام الدامس، وتحت هذا الضغط الهائل للماء لأن الضغط الواقع على أجسام الكائنات الحية بزداد كلما توغلنا فى العمق، ولكن تبين خطأ هذا التصور بعدما استطاع الإنسان أن يصل إلى تلك الأعماق بالغواصات المجهزة لذلك، حيث اكتشف أن ذلك الظلام الدامس يعج بمخلوقات عجيبة ذات تنوع مذهل، تلك المخلوقات لا تعرف نور الشمس فإنه لم يصل إليها أبدًا، ولا تستطيع أعينها أن تستجيب له وبتلك المخلوقات التى تعيش فى أعماق المحيطات يشبه الله الذين كفروا، لأنهم مثل تلك المخلوقات لا يعرفون النور، ولا يستطيعون الاستجابة له، فإن أعين قلوب الكافرين عمياء.

﴿ أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الأَرْضِ فَتَكُونَ لَهُمْ قُلُوبٌ يَعْقِلُونَ بِهَا أَوْ آذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا فَإِنَّهَا لا تَعْمَى الأَبْصَارُ وَلَكِن تَعْمَى الْقُلُوبُ الَّتِي فِي الصُّدُورِ ﴾(١). هؤلاء الكافرون هم الذين عناهم الله بقوله ﴿ وَلَقَدْ ذَرَأْنَا لِجَهَنَّمَ كَثِيراً مِّنَ الْجِنِّ وَالإِنسِ لَهُمْ قُلُوبٌ لاَّ يَفْقَهُونَ بِهَا وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لاَّ يُبْصِرُونَ بِهَا وَلَهُمْ آذَانٌ لاَّ يَسْمَعُونَ بِهَا أُوْلَئِكَ كَالأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ أُوْلَئِكَ هُمُ الْغَافِلُونَ ﴾(٢).

فهم ﴿كظلمات فى بحر لجى﴾ يشبهون مخلوقات تعيش فى البحر المحيط واسع الأرجاء، عميق الأغوار، وسمى المخلوقات «ظلمات» لأن المخلوقات فى حقيقتها كلمات إلهية كشف الله بها عن نفسه، ولكنها لا تعرف ذلك، ولذلك بعث الله النور أى أنزل الوحى ليكشف لها عن حقيقتها فتعرف أنفسها لتعرف ربها، ولكن الكافرين يرفضون الإيمان، إذ ينفرون من النور ولذلك فهم يصرون على البقاء فى الظلام، أى فى حال الاحتجاب مخفين حقيقة أنفسهم، أى مُغَطِّين كلمات الله فى أعماقهم، . . . ومن ثم استحقوا وصف الكافرين لأن الكفر هو التغطية أو الإخفاء ولذلك سماهم «ظلمات» لأن الظلمة هى ما يحجب النور، أو ما يخفى الشىء، وشبههم

(١) سورة الحج ـ الآية ٤٦ .
(٢) سورة الأعراف ـ الآية ١٧٩ .

بتلك الظلمات (المخلوقات) التى تعيش فى أعماق المحيطات، لأنها أيضًا لا تعرف نور الشمس فلا يصل إليها ولا تصل إليه.

عندما يثنى الله على نفسه قائلا ﴿**الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ وَجَعَلَ الظُّلُمَاتِ وَالنُّورَ**﴾(١) فإن الله - سبحانه وتعالى - يعنى أنه لا يستحق الثناء إلا الله الذى أظهر (خلق) السموات والأرض وأنزل (جعل) المخلوقات (الظلمات) التى تخفى الحقيقة الآلهية فى أنفسها وأنزل النور الذى يكشف لتلك المخلوقات عن حقيقتها، ويبين لها جوهر وجودها، ثم يتعجب من غلظة قلوب الكافرين وعماهم وظلمهم عندما يجعلون لله الخالق - سبحانه وتعالى - نِداً وشريكًا قائلاً ﴿**ثم الذين كفروا بربهم يعدلون**﴾.

﴿ **كفروا** ﴾: غطوا أنفسهم برداء التكذيب فأخفوا الحقيقة.

﴿ **يعدلون** ﴾: يجعلون لربهم أنداداً وشركاء وأضداداً ومساعدين!!! إذ يساوون بينه وبين خلقه وبين الحق وأوهامهم.

ونعود إلى البحر اللجى الذى ﴿**يغشاه موج**﴾: يغطيه موج فجعل الموج غشاءً، أو غطاء للبحر، رغم أن الموج ليس إلاّ حركة البحر أو اهتزاز الماء، فالبحر إذن يُغَشِّى أو يغطى نفسه بموجه كما أن الكافر يغطى نفسه بنفسه، أى يخفى حقيقته بعمله، وجعل الموج غشاءً أو غطاء أو ظلمة، إشارة إلى عكس (رد) الموج لأشعة الشمس النافذة

(١) سورة الأنعام - الآية الأولى.

فى ماء البحر ومنعها من التعمق، والحيلولة دون وصولها إلى المستويات الأعمق فتظل مخلوقات (ظلمات) الأعماق فى ظلام دامس.

و «موج»: هنا تشير إلى الموج العميق الذى يوجد عند مستوى ألف متر تحت سطح البحر.

﴿مـن فوقـه مـوج﴾: وهو الموج السطحى الذى تصنعه الرياح ويعكس (أو يرد) بعض أشعة الشمس فهو أيضًا غشاء أو ظلمة تمنع النور من الوصول.

﴿من فوقه سحاب﴾: والسحاب كما بينا من قبل هو ضباب السماء فهو أيضًا ظلمة أو حجاب.

فأدق وأجمل وصف لهذا المقام؛ مقام الكافر هو أنه فى **﴿ظلمات بعضها فوق بعض﴾**.

﴿إذا أخرج يده﴾: من الماء بعد صعوده من الأعماق ومغادرته للظلمات **﴿لم يكد يراها﴾** أو شك ألاّ يراها لأن عينيه قد اعتادتا الظلام الدامس، وفقدتا الإحساس بالنور **﴿ومن لم يجعل الله له نورا﴾** يرى به **﴿فما له من نور﴾** لأن الله وحده هو واهب النور فمن لم يحصل على نور من الله فمحال أن يستطيع الرؤية فأنى له النور؟!!

«وإخراج اليد» إشارة إلى الخروج من الظلمات، أو انقشاع

الحجب عند زوال الدنيا، أو انكشافها، والوقوف بين يدى الله وجهًا لوجه يوم القيامة، ومن ثم يصح نسبة اليد فى المَثَل إلى الله ويكون المعنى حينئذ إذا أخرج الله يده يوم القيامة لم يكد الكَافر يراها و «يد الله» كما أشرنا من قبل هى روح الله، الكائن الأول والنور الذى أناط الله به الكشف، وتعريف المخلوقات (الظلمات) بخالقها وإخراج اليد يعنى إذن إظهار «الروح» ويكون ثمرة ذلك تجلى الله ولكن الكافرين لا يستطيعون النظر إذ ﴿ **لا يُكَلِّمُهُمُ اللَّهُ وَلا يَنظُرُ إِلَيْهِمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ** ﴾[1] فلو نظر إليهم لنظروا إليه!!! «وإخراج اليد» يعنى إظهار الأعمال فى النور ليتم الحساب، لأن اليد رمز العمل!!

قوله ﴿**ومن لم يجعل الله له نوراً فما له من نور**﴾ إشارة إلى أن مخلوقات أعماق المحيطات يزودها الله بمصابيح فى أجسامها تكون بمثابة كَشَّافَات تضىء لها طريقها فى ذلك الظلام الدامس، الذى ترزح تحت وطأته فهى أفضل حالاً من الذين كفروا من بنى الإنسان الذين لم يجعل الله لهم نوراً، ومن ثم فمحال عليهم أن يروا الحقيقة إذ كتبوا على أنفسهم الكفر. فسبحان من كان هذا كلامه!!!

ولا يكتفى القرآن بأن يضىء لنا بنوره أعماق البحر اللجى، بل يضىء لنا أيضًا أعماق الأرض تحت هذا البحر، إذ يقسم قائلاً ﴿ **وَالْبَحْرِ الْمَسْجُورِ** ﴾[2] قاصداً البحر اللجى الذى تشتعل تحته

(١) سورة آل عمران ـ الآية ٧٧ .

(٢) سورة الطور ـ الآية ٦ .

النيران، فصار متقدًا أو مُوقدًا عليه، وهو قسم رائع يضىء لنا جوف الأرض الذى تغلى فيه البراكين وتفور. وينقلنا هذا القسم إلى الماء الباطن، إذ لا تمثل المحيطات والبحار والأنهار إلا «الماء الظاهر» فالأرض تحتوى فى جوفها المظلم تحت قشرتها على ماء باطن، أشار الله إلى وجوده وكثرته عندما أمر كليمه موسى - عليه الصلاة والسلام - إذ استسقاه قومه عندما اشتد بهم العطش أن يضرب بعصاه الحجر فى أى مكان تطأه أقدامهم فى صحراء سيناء لينفجر من باطن الحجر من تحت سطح الأرض اثنتا عشرة عينًا بعدد الأسباط، أبناء يعقوب - عليه الصلاة والسلام - بل وبأسمائهم أيضًا فهذا مقتضى قوله - سبحانه وتعالى - ﴿ **قد علم كل أناس مشربهم** ﴾ يعنى فقد تبين كل سبط المكان أو العين التى يشرب منها، لأنها خصصت له(١) باسمه!!! والمقصود من إخبارنا بهذه الآية (المعجزة) هو بيان احتواء الأرض فى جوفها على ماء كثير مختزن فيها فإنها مستودع الماء!!!

وأقام الله مقارنة بين قسوة قلوب الكافرين من بنى إسرائيل التى لا تستجيب لكلام الله، وبين الحجارة التى تستجيب لضغط الماء المحبوس فى جوف الأرض، يريد أن يخرج فأشار بذلك إلى كثرة الماء ورقة قلب الحجارة وقسوة قلب الكافرين، وأكد المشابهة بين عمل الماء والوحى فى الإحياء قال ﴿ **ثُمَّ قَسَتْ قُلُوبُكُم مِّنْ بَعْدِ ذَلِكَ**

---

(١) راجع الآية (٦٠) من سورة البقرة والآية (١٦٠) من سورة الأعراف.

فَهِيَ كَالْحِجَارَةِ أَوْ أَشَدُّ قَسْوَةً وَإِنَّ مِنَ الْحِجَارَةِ لَمَا يَتَفَجَّرُ مِنْهُ الأَنْهَارُ وَإِنَّ مِنْهَا لَمَا يَشَّقَّقُ فَيَخْرُجُ مِنْهُ الْمَاءُ وَإِنَّ مِنْهَا لَمَا يَهْبِطُ مِنْ خَشْيَةِ اللَّهِ وَمَا اللَّهُ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴾(١).

وَذكَّر الله نبيه ﷺ بتلك الحقيقة؛ حقيقة أنه (سبحانه) قد أودع منذ زمن طويل فى باطن الأرض ماء كثيرًا فقال له ﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ أَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَسَلَكَهُ يَنَابِيعَ فِي الأَرْضِ ثُمَّ يُخْرِجُ بِهِ زَرْعًا مُّخْتَلِفًا أَلْوَانُهُ ثُمَّ يَهِيجُ فَتَرَاهُ مُصْفَرًّا ثُمَّ يَجْعَلُهُ حُطَامًا إِنَّ فِي ذَلِكَ لَذِكْرَىٰ لأُولِي الأَلْبَابِ ﴾(٢).

قوله ﴿فسلكه ينابيع فى الأرض﴾ : فأدخله فى الأرض على هيئة ينابيع (جمع ينبوع) وهى خزائن الماء المغلقة والمدفونة فى باطن الأرض لم تفتح بعد أى لم تظهر أو تُفَجَّر على هيئة «عيون». فالينابيع هى العيون المغمضة فإن فُتحت الجفون (القشرة الأرضية) ظهرت العيون وسال منها الماء ﴿ وَقَالُوا لَن نُّؤْمِنَ لَكَ حَتَّىٰ تَفْجُرَ لَنَا مِنَ الأَرْضِ يَنبُوعًا ﴾(٣) فبين على لسانهم أن الينبوع هو عين الماء التى لم تُفَجَّر بعد فهو خزينة مغلقة على الماء فى جوف الأرض.

---

(١) سورة البقرة ـ الآية ٧٤ .

(٢) سورة الزمر ـ الآية ٢١ .

(٣) سورة الإسراء ـ الآية ٩٠ .

قوله ﴿ثم﴾ يعنى أنه قد مضى زمن لا يعلم طوله إلاّ الله بين إدخال الماء فى الأرض وإخراجه منها من أجل أن ﴿ يخرج به زرعًا مختلفًا ألوانه ﴾ ولكن إخراج الزرع المختلف الألوان إنما يتم بالماء النازل من السماء، سواء كان ذلك بطريق مباشر، أى من المطر إلى التربة دون واسطة، أو بطريق غير مباشر، من خلال الأنهار والعيون وخزانات الماء، والحقيقة التى يُلَوِّحُ إليها الله ـ سبحانه وتعالى ـ بقوله ﴿ثم﴾ هى أن الماء قد خرج من باطن الأرض فى زمن موغل فى القدم وذلك بعد أن أنزله الله فى الأرض وأسكنه[1] فيها وسلكه ينابيع وهى الحقيقة التى أعلنها صراحة فى قوله ﴿ أَخْرَجَ مِنْهَا مَاءَهَا وَمَرْعَاهَا ﴾[2] وكان ذلك فى بداية الخلق عند إعداد الأرض لظهور الكائنات الحية، كما يفهم من سياق آيات سورة النازعات ﴿ أَأَنْتُمْ أَشَدُّ خَلْقًا أَمِ السَّمَاءُ بَنَاهَا (٢٧) رَفَعَ سَمْكَهَا فَسَوَّاهَا (٢٨) وَأَغْطَشَ لَيْلَهَا وَأَخْرَجَ ضُحَاهَا (٢٩) وَالأَرْضَ بَعْدَ ذَلِكَ دَحَاهَا (٣٠) أَخْرَجَ مِنْهَا مَاءَهَا وَمَرْعَاهَا (٣١) وَالْجِبَالَ أَرْسَاهَا (٣٢) مَتَاعًا لَكُمْ وَلأَنْعَامِكُمْ ﴾[3].

﴿ ذَلِكَ ﴾: إشارة إلى تسوية السماء إلى سبع طباق، وإخراج

---

(١) انظر الآية ١٨ من سورة المؤمنون التى يقول الله فيها «وأنزلنا من السماء ماءً بقدر فأسكناه فى الأرض وإنا على ذهاب به لقادرون».

(٢) سورة النازعات ـ الآية ٣١ .

(٣) سورة النازعات الآيات ٢٧ - ٣٣ .

الضحى الذى يعنى إنزال اللوح المحفوظ الحاوى لعلم الله، وتقسيم ما فيه على السماوات السبع، حيث نالت كل سماء أمرها (كتابها).

﴿ دَحَاهَا ﴾ أعد سطحها ليكون قراراً للكائنات الحية، وذلك عبر سلسلة متواصلة من البراكين الهائلة، أخرجت بعض ما فى جوف الأرض ونتج عنها إلقاء وتراكم الحمم البركانية فى مواضع، وإحداث انخفاضات وإزاحات لسطح الأرض فى مواضع أخرى، ولفظ «دحا» يدور حول معانى الإزالة والإزاحة والقذف والرمى، وتمهيد التربة ومسحها وكان ثمرة هذا الدحو خروج «الماء» الذى كان الله قد أسكنه من قبل فى باطن الأرض، وقد خرج الماء على هيئة بخار بالغ السخونة لذلك قال مفسراً ومبينًا نتيجة الدحو ﴿ أَخْرَجَ مِنْهَا مَاءَهَا وَمَرْعَاهَا ﴾ ويمثل بخار الماء ما يناهز سبعين بالمائة (٧٠٪) من مكونات الحمم البركانية التى تنطلق من فوهاتها، وعندما صعد بخار الماء فى الهواء المحيط بالأرض حبسه الله بفضل برودة الطبقة الدنيا من الغلاف الجوى، فاتخذ صورة السحاب أو هيئة الضباب، ثم أخذ يعود إلى الأرض مطراً ظل يواصل الهطول وحين بردت الأرض استطاع الماء النازل من السماء أن يملأ المنخفضات، وأن يتسرب فى الشقوق التى أحدثها الدحو فظهرت المحيطات والبحار والأنهار، وتفجرت العيون، وابتدأت واستمرت دورة الماء التى يحركها،

﴿تصريف الرياح والسحاب المسخر بين السماء والأرض ﴾[1].
وكان الماء هو الأصل الذى خرجت منه كل الكائنات الحية.

ها قد عدنا مع الماء إلى البداية، بداية ظهور الكون، أو خلق السماوات والأرض، ونشأة الكائنات، ولكن بيان ذلك يحتاج لا شك إلى رحلة أخرى.

﴿ وآية لهم الأرض الميتة أحييناها وأخرجنا منها حبا فمنه يأكلون (٣٣) وجعلنا فيها جنات من نخيل وأعناب وفجرنا فيها من العيون (٣٤) ليأكلوا من ثمره وما عملته أيديهم أفلا يشكرون ﴾[2].

(١) سورة البقرة الآية - ١٦٤ .
(٢) سورة يس - الآية ٣٢ - ٣٥ .

أهم المراجع

١ ـ القرآن الكريم.

٢ ـ القرآن والعلم ـ تأليف الدكتور محمد جمال الدين الفندى ـ دار المعرفة ـ القاهرة.

٣ ـ الكون والإعجاز العلمى فى القرآن ـ تأليف الدكتور ـ منصور حسب النبى ـ دار الفكر العربى ـ القاهرة ـ الطبعة الثالثة ـ ١٤١٦ هـ / ١٩٩٦م.

٤ ـ القرآن وعلوم الأرض ـ تأليف محمد سميح عافية ـ الزهراء للإعلام العربى ـ الطبعة الأولى ١٤١٤ هـ / ١٩٩٤هـ.

٥ ـ من آيات الإعجاز العلمى فى القرآن الكريم تأليف الدكتور / زغلول النجار، مكتبة الشروق ـ القاهرة، الطبعة الثانية ١٤٢٢ هـ ـ ٢٠٠١م.

٦ ـ كل شيء عن الجو وتقلباته ـ تأليف إيفان رأى تانهيل ـ ترجمة الدكتور / محمد جمال الدين الفندى ـ الطبعة السابعة ١٩٩٢م.

٧ ـ القرآن معجزة كل العصور ـ تأليف الدكتور التوحيد الزهيرى دار الشعب القاهرة ٢٠٠١هـ.

٨ ـ حقائق عن الأرض ـ تأليف باتريك مور ـ الألف كتاب (٤٨٠) مكتبة نهضة مصر ١٩٦٣م.

٩ ـ كل شىء عن البحر ـ تأليف فردينان لين ـ ترجمة الدكتور / محمود محمد رمضان ـ دار المعارف، الطبعة السابعة ١٩٩٢.

١٠ ـ كل شىء عن الأنهار العظيمة فى العالم ـ تأليف آن نيرى هوايت، ترجمة محمد عبد الفتاح إبراهيم ـ دار المعارف ـ الطبعة السابعة ١٩٩٢.

١١ ـ كل شىء عن المنطقتين المتجمدتين ـ تأليف أرمسترنج سبيرى، ترجمة عمر كامل الوكيل ـ دار المعارف الطبعة السادسة ١٩٩٢.

١٢ ـ دراسة الكتب المقدسة فى ضوء المعارف الحديثة ـ موريس بوكاى ـ دار المعارف ـ القاهرة.

المحتويات

* تقديم ٧
١ - من السماء نشرب الماء ونأكل الطعام ٢٥
٢- ماء السماء ٥١
٣- ماء الأرض ٩٣
أهم المراجع ١٢٩
الكاتب فى سطور ١٣١

الكاتب فى سطور

الاسم: توحيد عبد الفتاح حواش الزهيرى.

المهنة: طبيب

عضو عامل باتحاد الكتاب.

العنوان: جمهورية مصر العربية - محافظة القليوبية - طوخ - منزل رقم ١٩ - الطريق السريع أمام نقطة مرور طوخ.

تليفون: ٠١٣٢٤٦١٩٢٦.

محمول: ٠١٢٨٣٢٢٤١٢٥.

المؤلفات المنشورة:

(١) كلمة من الله: رواية تاريخية، تتناول قصة حياة المسيح عليه السلام، فى سياق عرض تاريخى للعصر الذى عاش فيه، صدرت فى نوفمبر ١٩٩٣.

(٢) نحو فلسفة إسلامية للجمال والفن - دراسة تؤسس لرؤية إسلامية أصيلة فى ميدان فلسفة الفن والجمال، صدرت عام ١٤١٨هـ - ١٩٩٨م، عن دار القلم بالقاهرة (٣٦ ش القصر العينى، القاهرة).

(٣) القرآن معجزة كل العصور - مدخل إلى فهم النص القرآني، صدر عن دار الشعب بالقاهرة (٩٢ شارع القصر العيني، عام ١٤٢١هـ= ٢٠٠١م.

(٤) الماء في القرآن والسنة والعلوم الحديثة - مقالات في التفسير، صدر عن مكتبة الدار العربية للكتاب (شارع عبد الله العربي - الحي السابع - مدينة نصر)، والدار المصرية اللبنانية عام ١٤٢٤هـ= ٢٠٠٣م.

(٥) التحديات التي تواجه العالم الإسلامي (البحث الفائز بجائزة الدكتور محمد شوقي الفنجري لخدمة الدعوة والفقه الإسلامي)، صدر عن دار الجميل للنشر والتوزيع، عام ١٤٢٤هـ= ٢٠٠٣م.

(٦) لمحات من حياة نبي الرحمة - سلسلة دراسات إسلامية، المجلس الأعلى للشئون الإسلامية، القاهرة.

(٧) الحريات العامة والحقوق السياسية في القرآن والسنة، صدر عن دار القلم للنشر والتوزيع، القاهرة عام ١٤٣٢هـ= ٢٠١١م. يطلب من مكتبة الوفاء بالأزهر (١ درب الأتراك)، والمكتبات الكبرى بالقاهرة.

(٨) شرعية الأحزاب السياسية في القرآن والسنة، صدر عن دار القلم للنشر والتوزيع، القاهرة عام ١٤٣٢هـ= ٢٠١٢م. يطلب من مكتبة الوفاء بالأزهر (١ درب الأتراك)، والمكتبات الكبرى بالقاهرة.

(٩) الطريق إلى غار حراء - رواية تقص حياة النبى قبل نزول الوحى عليه، تطلب من مكتبة الوفاء (١ درب الأتراك بالأزهر)، والمكتبات الكبرى بالقاهرة.

(١٠) عندما عانقت الأرض السماء - رواية تقص مشهد الوحى فى غار حراء، صدرت عن دار النشر للجامعات، والوادى للثقافة والإعلام، القاهرة، عام ٢٠١٤م.

(١١) أول الطريق - رواية ورؤية لنشأة الكون ونهايته، صدرت عن الوادى للثقافة والإعلام، ودار النشر للجامعات، عام ٢٠١٥م.

(١٢) الجمال فى القرآن الكريم، الوادى للثقافة والإعلام، ودار النشر للجامعات، عام ٢٠١٦م.

الماء

في القرآن والسنة والعلوم الحديثة

لقد أدى عدم استحضار النص القرآني في مجموعه عند البحث عن معنى اللفظة التي يراد استجلاء غموضها ، إلى الوصول إلى نتائج خاطئة في التفسير .. تلك النقطة كانت المحور الرئيسي للمعالجة ، التي يقدمها الكتاب ، انطلاقًا من أن القرآن كائن حي ، ينير بعضه بعضًا أو يفسر بعضه بعضًا ، وأن السياق - وحده - أعظم شارح للنص القرآني البديع ، الذي أتاحت لنا تلك المعرفة الهائلة في عصرنا هذا ، دلائل دامغة على صحة القرآن الكريم وصدق النبي محمد ، صلى الله عليه وسلم ، كما يؤكده الحق ، سبحانه وتعالى في قوله :

{ سَنُرِيهِمْ ءَايَٰتِنَا فِى ٱلْءَافَاقِ وَفِىٓ أَنفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ ۗ أَوَلَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُۥ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ شَهِيدٌ } [فصلت / ٥٣]

إن التأويل الصحيح أو الحق هو التأويل الذي يوافق الآيات المحكمة ، وتتوافر على إثبات صحته سائر الأدلة النقلية والعقلية ، ويلتزم بقواعد اللغة العربية التي نزل بها (هذا اللسان العربي المبين) .. وتكتمل قيمة الكتاب حين تعرض صفحاته رحلة ، تبدأ من شربة الماء ، التي نتناولها في قيظ الصيف .. متنقلاً بين السماء والأرض .. ثم عائدًا في عكس حركة الزمن إلى الوراء حيث بدأ الكون ، وخرج الماء من الأرض ، وكان أصلاً لكل شيء حي ...

مكتبة الدار العربية للكتاب

6 222006 300937